"مجالس رمضانية"

للشيخ سلمان العودة

الحلقة الأولى

مرحبًا بشهر الخير والرحمة، شهر التوبة والغفران، شهر الذكر والقرآن

مرحبًا بشهر الخير والرحمة، شهر التوبة والغفران، شهر الذكر والقرآن، هذه هي الفرحة الكبرى، والنعمة المُثْلَى، والفضل الكبير، فمرحبًا به من شهر كريم، وموسم عظيم.

كيف لا يفرح المؤمنون الطائعون المُخْبِتون برمضان، وهو شهر يربُّون فيه أنفسهم على الصبر عن الشهوات، وتربية الإرادة، وتعزيز التقوى، وبعث الإيمان؟

كيف لا يفرحون وهم يستذكرون ما أعدَّه اللهُ فيه من الثواب الجزيل، والعطاء العظيم، ومضاعفة الحسنات، وتكفير الخطايا والسيئات؟

كيف لا يفرح المؤمن بصلاة التراويح، وفيها غفران الذنوب، وستر العيوب؟

كيف لا يفرح بليلة القدر، وهي خير من ألف شهر؟

كيف لا يفرح بشهر القرآن، والذكر، والتفكُّر، والتأمُّل، والروحانيات التي ينبعث أريجها في كل مكان، وانشراح الصدر، والطُّمأنينة، والخير، والفضل (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

﴿٥٨﴾ [يونس: 58].

قِفي ها هُنا في رحابِ الهُدَى
ولله يا نفسُ فاسْتَسْلِمي
أطَلَّ عَلى النّاسِ شهرُ الصيا
مِ فبُشْراكِ بالوافد المُكْرَمِ
هَلُمِّي هَلُمِّي به نَحْتَفي
ونُعْلِنُ عن فرحَة المَقْدَمِ
أعيذُكِ من نزغات الهوَى
وفي مَوْسِم الخِصْب أنْ تُحرَمي
على عَتَبات الرِّضا والسلا
مِ أَطيلي الوُقوفَ ولا تَسْأَمي
فإنْ جادَ بالعَفْو رَبُّ السمَّا
ءِ فحسْبُكِ ذلكَ من مَغْنَمِ
وحسبُكِ أَنَّا عَفَرْنا الجَبِي
نَ لدَيه وفي حِصْنه نَحْتَمِي.

يفرح المؤمنون بشهر رمضان، وتنشرح فوسهم، وتسمُو أرواحهم: فهو

مدرسة للتربية وإعداد النفس، والتخلِّي عن عاداتٍ مستحكمة، واكتساب أنماط من السلوك فاضلة؛ متى كنا واعين بعظمة هذه الفرصة، مُدركين أثرها. ومع الإشادة بكل بادرةِ خيرٍ من مسلم، مهما دقَّت وجلَّت؛ فإن التغيير الذي تُحدثه العبادة يمكن أن يكون تحوُّلًا جوهريًّا، وليس التزامًا طارئًا، أو حالة عابرة.

التهنئة بالشهر:

وفي بداية الشهر يتبادل المؤمنون التهاني بدخوله بعبارات مختلفة مباشرة، أو عبر رسائل الجوال، أو غيرها، وبعضهم يختار عبارات جميلة، وألفاظًا عذبة، ودعوات مباركة، وتوصيات بالحق والصبر.

والتهاني من العادات السائغة عند تجدُّد نعمة أو دفع نقمة، قال الشيخ عبدالرحمن السعدي:

«هذه المسائل وما أشبهها مَبْنِيَّة على أصل عظيم نافع، وهو أن الأصل في جميع العادات القولية والفعلية الإباحة والجواز؛ فلا يحرَّم منها ولا يكره، إلا ما نهى عنه الشارع، أو تضمَّن مفسدة شرعية، وهذا الأصل الكبير قد دلَّ عليه الكتاب والسنة في مواضع، وذكره ابن تيمية وغيره... والعادات

والمباحات قد يقترن بها من المصالح والمنافع ما يلحقها بالأمور المحبوبة لله، بحسب ما ينتج عنها وما تثمره، كما أنه قد يقترن ببعض العادات من المفاسد والمضار ما يلحقها بالأمور الممنوعة، وأمثلة هذه القاعدة كثيرة جدًّا.«

وقال ابن القيم تعليقًا على قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا: «وفيه دليل على استحباب تهنئة مَن تجدَّدت له نعمةٌ دينية، والقيامِ إليه إذا أقبل ومصافحتِه، فهذه سنة مستحبَّة، وهو جائز لمَن تجدَّدت له نعمة دنيوية، وأن الأولى أن يقال له: لِيَهْنِكَ ما أعطاك الله، وما مَنَّ الله به عليك... ونحو هذا الكلام؛ فإن فيه تولية النعمة ربَّها، والدعاء لمَن نالها بالتَّهنِّي بها.«

والجمهور من الفقهاء على أن التهنئة بالعيد لا بأس بها، وهو أشهر الروايات عن الإمام أحمد، وذهب بعضهم إلى مشروعيتها.

وقال ابن قدامة: «قال أحمد رحمه الله: ولا بأس أن يقول الرجل للرجل يوم العيد: تقبَّل الله منا ومنك. وقال حرب: سُئل أحمد عن قول الناس في العيدين: تقبَّل الله منا ومنكم؟ قال: لا بأس به، يرويه أهل الشام عن أبي أمامة. قيل: وواثلة بن الأَسْقَع؟ قال: نعم. قيل: فلا تكره أن يُقال هذا يوم العيد؟ قال: لا.

وذكر ابن عَقِيل في تهنئة العيد أحاديث منها: أن محمد بن زياد قال: كنت مع أبي أمامة الباهلي وغيره من أصحاب النبيﷺ، فكانوا إذا رجعوا من العيد يقول بعضهم لبعض: تقبَّل الله منا ومنك. وقال أحمد: إسناد حديث أبي أمامة إسناد جيد.

وقال علي بن ثابت: سألت مالكَ بنَ أنس منذ خمسٍ وثلاثين سنة، وقال: لم يزل يُعرف هذا بالمدينة». ولا شك أن رمضان وقدومه من أفضل النِّعم.

الاستعداد لرمضان:

يستعد الناسُ لرمضان كلٌّ على طريقته:

*فمنهم مَن يستعد بإخلاص القلب، وتصحيح النية، والإقبال على العبادة، وتجريد القصد لله تعالى، والعزم على التوبة، وتأهيل النفس للانتفاع بروحانيات الشهر وإيمانياته، مع القرب من الصالحين والذاكرين.

وقلَّ مؤمن بالله ولقائه ورسله إلا ويُحْدِثُ الشهر عنده فرقًا، قَلَّ أو كَثُرَ، صغُر أم كبُر، فإذا وُفِّق العبد لتعزيز هذا المعنى، وتدعيمه بالأعمال القلبية، وكثرة الاستعانة بالله، وصدقات السرِّ، والإحسان للأهل والأسرة، ورعاية الفقير والمسكين، وطلب المسامحة ممن حوله، من العاملين تحت

يده، أو المشاركين له، أو أولاده وأهل بيته، أو جيرانه، وتجديد العزيمة كلما ضعفت وكلَّت، إذا وُفِّق لهذا، فهو على خير وإلى خير.

ويحسُن بالأئمة والخطباء والوعاظ أن يتقنوا وسيلة الخطاب، ويدرسوا نفسيات المخاطَبين ويتعرَّفوا على أحسن الطرق للوصول إلى الناس، فلا يفرطوا في التوبيخ والزجر والوعيد؛ فإن الترغيب والترهيب مثل الجناحين للطائر، لا يطير إلا بهما معًا.

وأفضل منهما: حب الله، وهو بمثابة رأس الطائر، فإذا قُطع الرأس فلا أمل فيه.

وقد نصَّ الأئمةُ على أنه في أزمنة الغفلة والإعراض، يكون الترغيب أولى وأدعى للقبول، كما ذكره ابن عبد البر، وابن باز، وغيرهم. مع ضرورة تجنب المبالغة في الحديث وسوق الروايات الغريبة والقصص المنكرة، ففي مواعظ الكتاب والسنة الفضل والكفاية.

*من الناس مَن يستقبل الشهر الكريم بالتسوُّق الطويل، وشراء الحاجيات من مآكل ومشارب وتوابعها، وهو قدر حسن إذا وقف عند حد الاعتدال، فإن التوسعة على النفس والعيال والأهل من خُلق الكرام، وإنما يُفرَح بالمال لإنفاقه وبذله، والكرم والسخاء في الجنة، والبخل والشح في النار.

بيد أن رمضان فرصة للقضاء على الروح الاستهلاكية الفاشية لدى المسلمين، خصوصًا الشعوب الغنية، والحال أن كثيرين يستعدون لرمضان وكأنهم مقبلون على أزمة خانقة.

إن العادات الاستهلاكية في الطعام والشراب والأجهزة والأدوات والسيارات والملابس وسواها تحتاج إلى تصحيح، وليس حسنًا أن يدخل المرء متجرًا لشراء غرض، فيخرج بعشرة أو عشرين، لمجرد أنه قد يحتاج!

علينا المحافظة على الثروة، سواء كانت مالًا أو ماءً أو نفطًا أو غيرها من الثروات الطبيعية التي هي للأجيال القادمة أيضًا، وقد قال الله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَمُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِۖوَلَا تُسْرِفُواۚإِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴿١٤١﴾) [الأنعام:141].

فذكر الاستعمال والأكل، وثنَّى بإيتاء الحق للآخرين المحتاجين، وثلَّث بالنهي عن الإسراف؛ وبهذا تتحقق التنمية المستدامة في كل جوانب الحياة وللجيل الحاضر والأجيال القادمة أيضًا، فهي شريكة في هذه الغنائم!

إن الشهر الكريم فرصة للكبار ليتعلَّموا الاعتدال والتوازن في الشراء والتملك والأكل والشرب والاستعمال.

وفرصة لتدريب الصغار على ذلك، فمن طبع الإنسان أن يحتقر الأشياء التي امتلكها وتمتد عينه إلى غيرها، وتغيير الجهاز المحمول أو الجوال أو السيارة لمجرد ظهور منتج جديد ليس عملًا حَصِيفًا. والحفاظ على ثروات الأرض ضرورة حياتية ومستقبلية.

وهكذا متابعة الموضة أولًا بأول وتكديس الملابس لمجرد مجاراة ما تعرضه دور الأزياء العالمية هو ضياع للمال وإهدار لاستقلال الشخصية وحضورها.

تقول تقارير: إن المواطن الخليجي يستخدم ثلاثة أضعاف المعدل الطبيعي من الماء، وهذا إسراف، والله تعالى يقول: (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (31) [الأعراف:31].

وفي الحديث أن النبيَّ ﷺ مرَّ على سعد بن أبي وقاص، وهو يتوضَّأ، فقال: «ما هذا الإسراف؟». فقال: أفي الوضوء إسراف؟! قال: «نعم، ولو كنتَ على نهرٍ جارٍ».

وتؤكِّد تقارير أخرى أن شعب المملكة يستهلك من الشاي والأرز ما تستهلكه دولة سكانها مائة مليون نسمة.

وتشير تقارير محلية إلى أن (50 %) مما تقوم الأسر بإعداده من الطعام مصيره صناديق النفايات، وأن (30 %) من الناس لا يبحثون عن الفقير، ولا عن الحيوانات لإطعامها، ولا عن الجمعيات المتخصِّصة في توزيع فائض الأطعمة!

وعادة ما يصحب هذا الإقبال على الشراء الرمضاني جشع ورفع للأسعار، مما يوجِب تشديد الرقابة على المحلات، ومعالجة الارتفاع غير المسوَّغ في أسعار السلع المستهدفة، مع دعم السلع الضرورية التي تمس الحاجة إليها. ويحسن تذكير الباعة والتجار بتقوى الله والحرص على الكسب الحلال الطيب، ولو كان قليلًا، فيبارك الله فيه، ويزيده وينميه.

ومن أسباب الحرمان وسوء العاقبة: الإثراء على حساب الضعفاء والمساكين الذين يبحثون عن لقمة العيش لهم ولمَن يعولون، في شهر يتسابق الموفَّقون للبذل والإنفاق وسد الخُلَّة.

*ومنهم مَن يستعد لرمضان ببرامج خاصة، كما في القنوات الفضائية والإذاعات والصحافة والمواقع الإلكترونية-وكلٌّ ينفق مما عنده-ما بين برامج هادفة ومنضبطة تبني القيم والأخلاق الكريمة، وأخرى تستهدف الربح المادي على حساب المبادئ الجوهرية، أو تستغل إقبال الناس للمنافسة على صناعة الإثارة التي لا تستثني المقدَّسات ولا تحتفل بمشاعر الآخرين، ولا تراعي حرمة الشهر وقدسيته.

*ومن الشباب مَن يستعد لرمضان بالبرامج الكروية والدوريات الرياضية، ويرتبط رمضان عندهم بالملاعب المضاءة، والجماهير المحتشدة، والحماس الملتهِب، وقد يمتد السهر إلى السُّحور، وأحيانًا يواصل بعضهم إلى طلوع الشمس، في تجمعات متنوعة الأغراض.

والرياضة المتوازنة التي بها حفظ البدن، والاستعداد لمواجهة صروف الحياة مطلب، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:

«علِّموا أولادكم السباحة والرمي والفروسية».

لكن المذموم شيئان:

-الإسراف والمبالغة وإضاعة الأوقات.

-وضع الشيء في غير موضعه.

قوة البدن من مقاصد الشريعة، والترفيه المنضبط لا تثريب فيه، بيد أن لكل شيء حدودًا، ولكل وقت وظيفة مناسبة.

وإذا سهر الشاب ليله كله في اللعب أو المشاهدة، فماذا عساه أن يصنع في نهاره؟! هل سيجد عزيمة ونشاطًا في قراءة أو درس أو عبادة أو عمل؟!

إن رمضان فرصة لكسر روتين الحياة، ولذا فهو موسم للتغيير الإيجابي، والمؤلم أن يوظَّف هذا المعنى لنقيض ما هو مأمول، وأن تضاف عادة جديدة سيئة إلى سجل عاداتٍ مُبَرْمَجَةٍ في النفس، وهي عادة السهر الذي يؤثِّر على خلايا المخ، ويُذهب نضارة الوجه، ويُحدِث آثارًا سلبية على الجلد والجسم، بل على العقل والروح، ويكدِّر صفو الإنسان وسعادته واستمتاعه، والله تعالى يقول: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) [النبأ:9-11].

الغريب أن العواصم الإسلامية تسهر كثيرًا، وعواصم العالم تنام مبكرًا، والمقارنة بين طوكيو وواشنطن ولندن، وبين الرياض ودبي والقاهرة، تُظهِر فرقًا ضخمًا، وبعض المدن تسهر حتى الفجر في رمضان وفي غيره، وجدير بالمسلم أن يحقِّق معنى الصيام (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) [البقرة:183].

فإذا لم يدع قولَ الزور والعملَ به، وشهادةَ الزور، واللغو والرفث؛ فليس لله تعالى حاجة أن يدع طعامه وشرابه.

وبهذا يُعلم أن الصوم لله في نيته وقصده وأجره، ولكنه للعبد خالصًا في ثمرته وعائدته وفائدته، وكل العبادات فالله عنها وعن أهلها غني (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) [الزمر:7].

الحلقة الثانية

الصوم عبادة ربانية، وشريعة نبوية، وامتحان إيماني

الصوم عبادة ربانية، وشريعة نبوية، وامتحان إيماني، يتجلَّى في هذا الشهر الكريم، كما قال مصطفى حمام:

هو للناس قاهرٌ دون قهر

وهو سلطانهم بلا سلطانِ

قال: جوعوا نهارَكم، فأطاعوا

خُشَّعًا يلهجون بالشُّكرانِ

إن أيامَك الثلاثين تمضي

كلذيذِ الأحلام للوسْنانِ

كلما سرَّني قدومُك أشْجا

ني نذيرُ الفِراق والهجرانِ

وستأتي بعد النَّوى ثم تأتي

يا تُرى هل لنا لقاءٌ ثانِ!؟

والصيام والصوم مصدران يدلان على الإمساك والتوقف؛ قال تعالى: (فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) [مريم:26]، وهو هنا: الإمساك عن الكلام.

والصوم: هو الإمساك عن المفطرات، في وقت محدود معلوم، ممن يتوجه له الحكم، مع النية.

وكان الصوم بمعنى الإمساك عن الطعام والشراب معروفًا عند العرب في الجاهلية؛ فقد كانوا يصومون يوم عاشوراء، وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يوم عاشوراء تَصومُه قريشٌ في الجاهلية، وكان النبيُّ ﷺ يصومُه، فلما قدم المدينةَ صامه وأَمر بصيامه، فلما نزل رمضانُ، كان رمضانُ الفريضةَ، وتُرك عاشوراءُ، فكان مَن شاء صامه، ومَن شاء لم يصمه».

ولا يسمَّى صيامًا إذا امتنع عن بعض الأطعمة أو الأشربة أو عن النساء فقط، كما كان موجودًا عند العرب، أو كما يفعله مَن يسمَّون بالنباتيين، أو أصحاب الحِمْيَة، أو كما هو الحال عند بعض أهل الكتاب.

وقوله تعالى: (على الذين من قبلكم لعلكم تتقون): يصح أن يشمل ظاهر الآية كلَّ مَن سبقنا من آدم إلى عيسى عليه السلام، وليس اليهود والنصارى فحسب، وعليه فكل مَن سبقنا كانوا يصومون؛ لكن لا يلزم أن يكون

صومهم هو نفس الصوم الشرعي الإسلامي، بمعنى الإمساك عن شيء مخصوص في وقت مخصوص، ولا أن يكون فرض عليهم شهر رمضان، وإنما المقصود فرض عليهم أصل الصيام لا صفته.

وقوله سبحانه: (لعلكم تتقون): التقوى تبدأ بالإيمان والإسلام، فمَن آمن وأسلم فقد اتَّقى الكفر واتَّقى عذاب الله، فإذا صام فقد حقَّق ركنًا من أركان الإسلام، وحقَّق قدرًا من التقوى، ولو كان في صومه بعضُ التخريق والخلل، كما في «الصحيح»: «الصيامُ جُنَّةٌ». وفي بعض رواياته عند النسائي، وغيره: «ما لم يَخْرِقْها».

وفي الآية فوائد:

الأولى: (كتب عليكم الصيام)، أي: فرض، فهي أصل في وجوب صيام رمضان، وقد أجمع أهل العلم كافة على أنه يجب على المسلم المكلَّف القادر أن يصوم شهر رمضان.

والأصل في وجوبه: الكتاب والسنة والإجماع:

أَمَّا الكتاب: فهذه الآية الكريمة، وأَمَّا السنة:

فقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس...». وذكر منها: «صوم رمضان»، والإجماع على وجوب صيامه إجماع قطعي، منذ قيام الرسالة وعبر العصور كافة.

الثانية: أن من أسرار الصيام وآثاره: التربية على التقوى؛ فإن الله لم يشرع العبادة لنتعذب بها، أو يصيبنا منها الحرج والمشقة بالامتناع عما نشتهي، ولكن لحكمة التربية على مراقبة الله في السر والعلن والصبر على ذلك، وأن نترك الشيء لأجله سبحانه، حتى لو كان محبوبًا مشتهى في النفوس.

فالتربية على الأخلاق الحميدة لا تخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه، حتى تصير مكارم الأخلاق مَلكة لمَن راضَ نفسَه عليها، وما أحسن قول القائل:

إذا المرءُ لم يَتْرُكْ طعامًا يُحِبُّه
ولم يَنْهَ قلبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا
فيُوشكُ أن تُلفَى له الدهرَ سُبَّةٌ
إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَملأُ الفَمَا.

وأعظم ما يدمِّر حياة المرء هو الاسترسال مع ما يحب ويشتهي، دون نظرٍ إلى فائدته أو ضرره، فيعتاد على طاعة نفسه ويسلِّم القياد لها، ويكره كل عمل يتطلَّب جهدًا أو مشقة أو سهرًا أو عناءً.

فمَن امتنع عن مشتهى نفسه من أكل وشرب وغيره مما أحله الله، طاعة لربه، وقُربة له وتعبُّدًا؛ تعزَّز في قلبه نفورٌ وابتعادٌ عمَّا هو محرم في الأصل، وإلا فما معنى أن يترك الصائم ما طاب مما أحلَّه الله من طعام وشراب وغيره، ثم هو يقع في غيبة ونميمة، وسوء ظن، وعقوق، وشتم وسب، وغش وتحايل، وغير ذلك مما حرمه الله في رمضان وغيره؟

الثالثة: مَن تأمَّل سورة البقرة وجد سياقًا طويلًا عن جدل اليهود، وتلاعبهم وتلُّومِهم وعنادهم، وقتلهم أنبياءهم، واختلافهم عليهم، وهذا نزل أول مَقْدَم الرسول ﷺ إلى المدينة، ثم يذكر الله تعالى في وسط ذلك كله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [البقرة:183]، فما سرُّ ذلك، مع أن المسلمين لم يكونوا في حالة ارتياح أو أُنْس مع مَن كانوا قبلهم؟

الظاهر -والله أعلم-هو تربية المسلمين على الفرز والفصل والعدل في التعامل، وتأمل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُواۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) [المائدة:8]، وقول النبي ﷺ: «أما إنه قد صدقك وهو كذوبٌ».

وأن المسلم أولى باتباع الحق، وأن مَن كره أحدًا، فلا يجحد ما عنده من خير وفضل.

وهذا كقوله سبحانه: (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا) [البقرة:158]. فالطواف إما ركن أو واجب، وقد كانوا في الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة، ويهلُّون لأصنامهم؛ فتحرَّج المسلمون أن يفعلوا ذلك وتوقفوا فيه، فذكر الله سبحانه أنه لا جناح عليهم في ذلك، وإن كان موجودًا في الجاهلية، إلا أنه من آثار الأنبياء.

ومثله صوم المسلمين لعاشوراء، فاليهود كانوا يصومونه ويعظِّمونه؛ كما ثبت في «الصحيح»، فقال ﷺ: «فأنا أحقُّ بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه.

الرابعة: قوله سبحانه: (كما كتب على الذين من قبلكم): فيه تعظيم وبيان لأهمية شعيرة الصيام؛ فإن الله تعالى لا يشرع شيئًا لجميع الأنبياء والرسل والأمم السابقة، إلا ويكون عظيمًا ومهمًّا؛ ولهذا اتفق جميع الرسل والأنبياء على الدين العام، وإن اختلفت تفاصيل الشرائع، وفي «الصحيحين»: «الأنبياءُ إِخوةٌ من عَلَّاتٍ، وأمهاتهم شتى، ودينُهم واحدٌ».

ومن هذا الدين العام الصوم؛ فيشعر المسلم أنه يؤدِّي شعيرة عظيمة، اتفق عليها جميع الأنبياء.

الخامسة: أن المسلم إذا علم أنه لم يُخصَّ بهذه الشعيرة وحده، وأن الأنبياء كلهم صاموا، والأمم من قبله صامَت؛ كان ذلك عزاءً وتسليةً له، وتقويةً لقلبه على الصيام الذي أُمر به كما أُمر به مَن كان قبله من الأمم.
السادسة: في قوله: (كتب عليكم الصيام):

الصيام الشرعي معروف؛ لكنه في هذه الآية غير محدَّد بزمن ولا عدد، ولهذا نُقل عن بعض السلف أن الصيام كان في أول الإسلام مطلقًا غير محدَّد.

وقيل: ثلاثة أيام من كل شهر. وقد تقدَّم أنهم كانوا قبل الإسلام يصومون عاشوراء، فلعل ذلك كان المرحلة الأولى من الصيام.
السابعة: التدرُّج في التشريع؛ قال ابن العربي: «الشرع لم يأت دفعة، ولا وقع البيان في تفصيله في حالة واحدة؛ وإنما جاء نجومًا وشُذِّر شذورًا؛ لمصلحة عامة وحكمة بالغة».

وهذا من خصائص شريعة الإسلام في المأمورات كالصلاة، وفي المنهيات كالخمر، فالصلاة كانت في بادئ الأمر ركعتين ركعتين، فزيدت في الحضر وبقيت في السفر، كما في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «فرَض اللهُ الصلاةَ حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر، فأُقرِّتْ صلاةُ السفر، وزِيد في صلاة الحضر.«

والخمر لم يحرّمِها الله تعالى دفعة واحدة؛ بل على ثلاث مراحل.

وفي آية الصوم معنى عجيب؛ فإن الله خاطبهم بالإيمان: (يا آيها الذين آمنوا) وهذا فيه نوع من إثارة الإيمان بربهم، وتشجيعهم وحثهم على السماع والتنفيذ، ثم الإشارة إلى أنه كُتب عليهم، وهذا فيه حث لهم؛ لأنه لو كان هذا الأمر مسنونًا أو مستحبًّا، فربما فرَّط فيه بعض الناس، ويعلم المستمع أن الكاتب هو الله الخالق سبحانه، فيحثُّهم هذا على الامتثال.

ثم يقول: (كما كتب على الذين من قبلكم) أي:

هذا أمر لم تنفردوا به عن غيركم.

ثم يُبين أنهم هم المقصودون، وأن المصلحة لهم (لعلكم تتقون).

ثم يؤكِّد أن الأمر لا يتجاوز أيامًا معدودة، أي: قليلة، ومع أنها أيام معدودة إلا أن فيها ألوانًا من الرخص؛ ففي أول الإسلام كان هناك رخصة لمَن لا يريد الصيام أن يفتدي، وحتى بعد ذلك لا زالت الرخصة قائمة إلى اليوم لمَن كان مريضًا أو على سفر أن يفطر ويصوم عدة من أيام أخر، ثم يعقِّب سبحانه ذلك كله بقوله: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) [البقرة:185].

ففي الآية الكريمة ألوان من التدرُّج ومراعاة أحوال الناس ونفسيَّاتهم، واختيار الطرق المثلى في التأثير عليهم.

وفي هذا درس كبير للدعاة؛ فالله وهو يأمر عباده ويكلِّفهم بشعيرة هي ركن من أركان الإسلام، جعل في هذه الآية ما يزيد على اثني عشر دربًا من دروب التدرُّج، والترغيب، والتحضيض، والتحبيب، والتهوين على العباد؛ فكذلك الداعية ينبغي أن يحرص على تسويق دعوته إلى الناس بالحسنى، وأن يتدرَّج إليهم ويحرص على هدايتهم من أقرب الطرق، وأسهل الأبواب والأسباب.

وسيرة الرسول ﷺ أحسن سيرة، وهَديه أكمل هَدي، وسنته أعظم سنة، جعل الله فيها خاصية يشعر معها الإنسان بقرب تناولها وتطبيقها؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، قد غَفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدُهم: أما أنا، فإني أصلِّي الليلَ أبدًا. وقال آخر: أنا أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال آخر: أنا أعتزلُ النساءَ، فلا أتزوجُ أبدًا. فجاء رسولُ الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له؛

لكني أصومُ وأفطرُ، وأصلِّي وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمَن رغب عن سنتي فليس منِّي».

نعم، وُجد عند السلف رحمهم الله أشياء ليست خارجة عن السنة، ولا هي من اتباع السنة، ولكنهم قد يأخذون أنفسهم بالجِدِّ في بعض الأمور؛ فيكون عند أحدهم جانب من القوة في شعيرة السلوك والزهد والإعراض عن الدنيا، أو العلم والتحصيل، أو الإنفاق أو الجهاد؛ فإذا نظرت إلى سيرة واحد منهم خُيِّل لك أنك لن تستطيع اللحاق به؛ لكن إذا نظرت إلى سيرة سيدهم وإمامهم وقدوتهم محمد ﷺ، شعرت أنها في المتناوَل، قريبة المأخذ، ممكنة الاتباع، وهذا درس كبير في تقريب الأمر إلى الناس وتسهيله عليهم، سواء كان أمر دعوة، أو تعليم، أو إصلاح أو خير. وليس من المصلحة للناس أن نشعرهم وهم يُقبلون على وجه من وجوه الخير، أنهم داخلون في باب صعب يعزُّ عليهم المضي فيه؛ بل ينبغي تحفيزهم ودعم إرادتهم وهممهم، وإذا دخلوا فيه وجدوا العون من الله تبارك وتعالى.

الثامنة: الفرق الشاسع والبون العظيم بين أمة محمد ﷺ وبين بني إسرائيل، فبنو إسرائيل في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةًۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) [البقرة:67].

التاسعة: قال الله سبحانه: (وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗيُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة:184].

والمرض ما يخرج به الإنسان من الصحة إلى الاعتلال.

والمرض المبيح للفطر عند جمهور العلماء، ومنهم الأئمة الأربعة، هو ما يزيده الصيام أو يؤخِّر بُرأَه وشِفاءه، أو يشق مشقة ظاهرة على المريض.

والسفر هو مفارقة الإنسان وطنه وأهله مسافة معتبرة، سواء خُصِّصت بعدد من الكيلو مترات والأيام، كما هو رأي جمهور الأئمة، ومنهم الأئمة الأربعة، أو أُحيل فيها إلى العرف، كما هو اختيار جماعة من السلف، وترجيح ابن تيمية وابن القيم وجماعة.

وقد غاير السياق القرآني بين اللفظين، فقال: (مريضاً أو على سفر)، ولم يقل: (مريضًا أو مسافرًا)، وفي هذا إشارة إلى أن رخصة المريض آكد، ولهذا قدَّمه في الآية، وذكر الوصف المسبِّب للرخصة؛ لأن الصوم قد يشق عليه وقد يضره أو يؤجِّل برأَه.

و( ): تدل على التمكُّن والحدوث، فلا يفطر إلا إذا سافر فعلًا، وصح أن يسمَّى مسافرًا، أما ما دام في بلده فلا يفطر.

وكأن من أسرار التفريق بين اللفظين، أن المرض من الله ولا إرادة للإنسان فيه، ولذا عبَّر بالمريض، أما السفر فهو فعل بإرادة الإنسان، ولذا قال: (على سفر)، وكأنه راكب على السفر، وليس على الدابة أو السيارة أو الطائرة، وهو دليل على أن كل سفر يبيح الفطر، بغَضِّ النظر عن مقصود السفر، وهل هو ضروري أم للمتعة أم لغير ذلك، وحتى لو كان مرفَّهًا ومرتاحًا في سفره.

العاشرة: قوله جل وعلا: (فعدة من أيام أخر)، لم يقل سبحانه: (فصيام من أيام أخر)؛ ليدل على أن مَن أفطر أيامًا من رمضان، فإنه يقضي أيامًا بعددها فقط، (فعدة) أي: بعدد ما أفطر، وقول بعضهم: مَن أفطر يومًا فإنه يصوم عشرة أيام. باطل لا أصل له.

ويُؤخذ منها أنه لا يلزم التتابع في القضاء؛ فإن الله قد طلب منا شيئًا واحدًا، وهو أن تكون أيام القضاء بعدد أيام الفطر، ولم يذكر شرطًا آخر، وهو مذهب الجمهور، وهو الصحيح.

ولو صام في أي شهر لقضى ما عليه، ولا يلزم أن يقضيها مباشرة بعد رمضان، وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان يكونُ عليَّ الصومُ من رمضانَ، فما أستطيعُ أن أقضيَ إلا في شعبان».

إنه جديرٌ بالمسلم الذي يمضي نهار رمضان صائمًا، وربما شعر بالعطش وتقلَّصت شفتاه، أو شعر بالجوع واشتهى وجبة طعام؛ أن يستشعر المعنى الذي لأجله فعل هذا.

وأجمل ما يحقِّق هذا هو تأمُّل الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة الواردة في فضل الصيام وحكمته وأثره، واستشعار أنه المخاطَب دون سواه؛ ليتحقَّق بذلك كون الصيام مدرسة تربوية لصناعة الأخلاق وتعزيز الإرادة وبناء الشخصية الإنسانية الفعَّالة (يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [البقرة:185].

الحلقة الثالثة

ربَّانيَّة الصوم

نخطُو وما خَطوُنا إلَّا إلى الأجلِ

وننقضي وكأنَّ العمرَ لم يطُلِ

ونستلذُّ الأماني وهي مُرْوِيـةٌ

كشارب السُّمِّ ممزوجًا مع العسلِ

إنَّ الصومَ عبادةٌ شريفة، ويكفيه شرفًا أن الصوم لم يُعبَد به غيرُ الله؛ ففي حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقولُ الله عز وجل: الصومُ لي، وأنا أَجْزِي به».

قال الحافظ ابن حجر: «سبب الإضافة إلى الله؛ أن الصيام لم يُعبَد به غيرُ الله، بخلاف الصلاة والصدقة والطواف ونحو ذلك».

وكأنه يبعد فيه الرياء؛ لأن المرائي يقدر أن يفطر سرًّا، ولأن الصوم لا يقع إلا بالنية، والمرائي غير ناوٍ للصيام؛ ولأنه سرٌّ بين العبد وربه لا يعلمه الناس، بل يعلمه الله سبحانه.

والصوم مدرسة ربانية، ومحضن إيماني، يتلقَّى فيه الصائم دروس الأخلاق، ويتربَّى على جميل الطباع، وما أطيب أن يتعاقد الصائم مع نفسه منذ أول الشهر على أن يُعنى بواحد أو أكثر من الأخلاق الرفيعة، فيتعاهد نفسه ويراقبها ويحاسبها ويعاتبها، حتى تلين وتنقاد، كما قيل:

ما إن دَعاني الهوى لفاحشةٍ

إلا نهاني الصيامُ والكرمُ

فلا إلى مُنكرٍ مَددْتُ يدِي

ولا مشت بي لرِيبَةٍ قدَمُ

قال ابن الجوزي: «كان ابن عَقِيل يقول: إن التبذُّل فيه سبحانه أحسن من التجمُّل في غيره.

هل رأيتَ قطُّ عُراةً أحسنَ من المُحْرِمين؟! هل رأيتَ للمُتزيِّنين برِيَاش الدنيا سَمْتًا كأثواب الصالحين؟! هل رأيت خُمَارًا أحسنَ من نُعاس المُتهجِّدين؟! هل رأيتَ سُكْرًا أحسنَ من صَعْق الواجدين؟! هل شاهدتَ ماءً صافيًا أصفى من دموع المتأسِّفين؟! هل رأيتَ رؤوسًا مائلة كرؤوس المُنْكَسِرين؟! هل لُصِق بالأرض شيءٌ أحسنَ من جِباه المصلِّين؟! هل حرَّك نَسِيمُ الأسحار أوراقَ الأشجار؛ فبلغ مبلغُ تحريكه أذيالَ المُتهجِّدين؟! هل

ارتفعت أكفٌّ، وانبسطت أيدٍ، فضَاهَت أكفَّ الراغبين؟! هل حرَّك القلوبَ صوتُ ترجيع لحن أو رَنَّةُ وَتَر، كما حُرِّك حنينُ المشتاقين؟! وإنما يَحسُن التبذُّل في تحصيل أوفَى الأغراض؛ فلذلك حسن التبذُّل في خدمة المُنْعِم».

فالصوم صدمة روحية، وهذا سر من أسراره لمَن لم يتعوَّد أن ينكفَّ عن الحرام، وربما كان مدمنًا، فيفطمه الصيام عن الحلال أيضًا، ويذكِّره بالمعاني الربانية.

والعلاج بالصدمة مفيد ومجرَّب في حالات عديدة، والصدمة هنا مدروسة ومرتَّبة ومتدرِّجة، يشارك فيها المريض ذاته، حين يستجمع إرادته عل الدخول في تجربة جديدة بالصيام الربَّاني الصادق.

غضُّ البصر عن محارم الله:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 30-31].

وعن عبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمنْ لكمُ الجنة: اصدُقوا إذا حدَّثتم، وأَوْفُوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتُمِنتم، واحفظوا فروجَكم، وغُضُّوا أبصارَكم، وكُفُّوا أيديَكم».

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه: «يا عليُّ، لا تُتْبِع النظرةَ النظرةَ؛ فإن لك الأولى، وليست لك الآخرة».

وفي «صحيح مسلم» عن جَرِير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفُجَاءة، فأمرني أن أصرفَ بصري».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «حفظُ البصر أشدُّ من حفظ اللسان».

وقال أيضًا: «الإثمُ حَوَازُّ القلوب، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع».

وما أكثر المناظر التي أصبح من المحتم فِطام النظر عنها؛ فالقنوات التي يتفنَّن القائمون عليها باختيار الوجوه الحسان، والقامات الرشيقة، والأصوات الناعمة، والمواقع الإلكترونية المختلفة والتي يصل بعضها إلى حد الإباحية، ونشر الرذيلة والعُري، والمتاجرة بالأجساد، والأسواق التي تكتظ بالنساء، وفيهن المحجبة العفيفة المصونة، والمتبرِّجة المتطلِّعة الفاتنة المفتونة، حتى أصبحت مجاهدة النفس على غض البصر من أهم المهمات، وصار الفشل فيها لدى الشباب ذريعة إلى الوقوع في الفحشاء، والانقطاع عن عمل الخير، وضعف تأثير العبادة كالصوم والصلاة، وسبب لكثير من المعاناة والضيق وكدر الحياة.

ولغض البصر عما حرم الله فوائد، منها:

1- أنه امتثال لأمر الله الذي هو غاية سعادة العبد في معاشه ومعاده.
2- وهو يمنع وصولَ أثر السهم المسموم الذي ربما هلاكُ قلبه فيه.
3- ويورث القلب أُنْسًا بالله.
4- ويُقوِّي القلبَ ويُفرحه، كما أن النظر إلى المحرمات يُضعف القلبَ ويُحزنه.
5- ويكسب القلب نورًا، كما أن إطلاقه يورثه ظلمة.

6- ويورث الفراسة الصادقة التي يُميّز بها بين المحقِّ والمبطل، والصادق والكاذب.

7- ويورث القلب شجاعة وقوة، فيجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة وسلطان القدرة والقوة.

8- ويسدُّ على الشيطان مدخلَه إلى القلب؛ فإنه يسرع إلى القلب مع النظرة أسرع من الهواء إلى المكان الخالي.

9- ويفرّغ القلب إلى مصالحه، والاشتغال بها.

وعلى الشاب ألا ييأس ولا يستسلم، ولو أغراه الشيطان فتسلَّل إلى موقع، أو رمى نظرة إلى صورة؛ وليدمن الاستغفار، ويجعله على لسانه في الليل والنهار، ولا يحرم نفسه من الانضمام إلى قافلة ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17] فللاستغفار سر عجيب، من محو آثار النظر، وصفاء القلب، وتجديد العزيمة، وبسط سلطان السعادة على النفس، والحمد لله الذي شرع للمؤمنين التوبة، وحفَّزهم على الاستغفار، ووعدهم بالعفو.

ومنها: حفظ اللسان:

قال النووي: «اعلم أنه لكلِّ مكلَّف أن يحفظَ لسانَه عن جميع الكلام، إلا كلامًا تظهرُ المصلحة فيه، ومتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحة، فالسنة

الإمساك عنه؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه؛ بل هذا كثير أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلُها شيء».

وعن ثَوْبان رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]

قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره، فقال بعض أصحابه: أُنزل في الذهب والفضة ما أُنزل، لو علمنا أيُّ المال خير فنتخذه؟ فقال: «أفضَله لسانٌ ذاكرٌ، وقلبٌ شاكرٌ، وزوجةٌ مؤمنةٌ تعينه على إيمانه».

وفي المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فليقلْ خيرًا أو ليصمت».

وفيهما: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويده، والمهاجرُ مَن هجرَ ما نهى الله عنه».

وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة، ما يتبيَّنُ فيها، يَزِلُّ بها في النار أبعدَ مما بين المشرق والمغرب».

وفي «المسند»، و«جامع الترمذي»: «أمسكْ عليك لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابكِ على خطيئتِكَ».

وفيهما: «ثَكِلتْكَ أُمُّكَ يا معاذُ! وهل يَكُبُّ الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما من شيء أحقُّ بطول سجن من اللسان».

ويُروى أن قُسَّ بن ساعدةَ وأَكْثَمَ بنَ صَيْفِي اجتمعا- وهما من حكماء العرب- فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحصى، والذي أحصيتُه ثمانية آلاف عيب، ووجدتُ خصلةً إن استعملتها سترت العيوب كلها. قال: ما هي؟ قال: «حفظ اللسان».

ومن آفات اللسان:

1- الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع، والفخر بالأحساب، وإثارة النزعات العنصرية والقبلية والإقليمية التي تفرّق وحدة المجتمع والأمة، مع قوله سبحانه:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، والحسب: هو التقوى والعلم وحسن الخلق، وليس أن يكون أبوك فلانًا أو فلانًا!

2- الكذب، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «.. إياكم والكذبَ؛ فإن الكذبَ يَهْدِي إلى الفجورِ، وإن الفجورَ يَهْدِي إلى النارِ، وما يزالُ الرجلُ يكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتى يُكْتَبَ عند الله كذَّابًا».

3- التحديث بكل ما سمع إذا لم يظن صحته، وفي «صحيح مسلم»: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع». وفي محكم التنزيل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]، وفي قراءة: (فَتَثَبّتُوا).

4- إظهار الشماتة بالمسلم.

5- احتقار المسلمين والسخرية منهم بأشكالهم أو صورهم أو طريقة حديثهم.

6- شهادة الزور، وشهوده: حضوره، ومثله: الشهادة أمام القاضي بغير الحق.

7- المنُّ بالعطية ونحوها.

ومن أعظم آفات اللسان عامة، وفي رمضان خاصة: الغيبة.

والغيبة تضر بالصيام، وقد حُكي عن عائشة رضي الله عنها أن الغيبة تفطر الصائم، وتُوجِب عليه قضاء ذلك اليوم، وبه قال الأوزاعي، وأفرط ابن حزم فقال: يبطله كل معصية من متعمِّد لها، ذاكر لصومه؛ سواء كانت فعلًا أو قولًا. والصواب أنها تخدش الصوم، وتنقص أجره، لكنها لا تبطله ولا تُوجِب القضاء.

والغيبة هي كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ». سواء كان ذلك في بدن الشخص، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلْقه، أو خُلُقه، أو ماله، أو والده، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو ثوبه، أو حركته، أو طلاقته، أو عبوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به، وسواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة والرمز.

وللغيبة أسباب تبعث عليها، منها:

الاستهزاء الناشئ عن الكِبر والتعاظم وتحقير الآخرين، بسبب الحسد على ما آتاهم الله، ورفع النفس وتزكيتها، ومحاولة تبرئتها مما ينسبه المغتاب لمَن يغتابه، وقد يبعث عليها مجاملة الجالسين، وخشية نفرتهم إن لم يشاركهم.

ومن أعظم أسبابها: حب الانتقام، وشفاء النفس عن طريق ذكر المساوئ والسلبيات، حتى ولو تعريضًا؛ كقول بعضهم عند ذكر إنسانٍ ما: نسأل الله العافية!

وبالجملة، فكل قدح في الغير مما يكرهه لا يحل، وهو من الغيبة، وهي درجات: فبعضها أعظم من بعض، بحسب مَن تُكلِّم فيه منزلةً، وبحسب الدافع لها والحامل عليها، وبحسب المقالة التي قيلت فيه، فمَن اغتاب إنسانًا في دينه، فهذا أعظم من القدح في لون ثوبه أو طريقة مشيه..

والعجب أن كثيرًا من الذنوب العظيمة قد هانت على الناس، وخفَّ وقعُها، حتى إن الكبيرَ والصغيرَ والعالم والجاهل يعملُها ويكرِّرها، ولا يأنفُ ولا يستنكفُ ولا يتردَّدُ، بينما يتجادل الناس في مسائل صغيرة، ويعظِّمون

أمرها، ويبالغون في النكير على مَن خالفهم فيها، وقد تكون من المكروهات، أو مما هو خلاف الأولى، أو من اللَّمم.

إذا لم يكنْ في السَّمع مني تصاونٌ

وفي بصرِي غضٌّ وفي منطقي صَمْتُ

فحظِّي إذًا من صَومِيَ الجوعُ والظمأ

وإن قلتُ إني صُمتُ يومًا فما صُمتُ

فيتوجَّب على الصائم أن يحفظ صومه، وأن يتقي الله في لسانه وبصره وقلبه وجوارحه، وأن يحرص أن لا يكون حظُّه من صيامه الجوع والعطش.

الحلقة الرابعة

شهر القرآن من مجالس رمضانية

اللسان خُلِق للكلام، فلا شيء يحمي من زَلَلِه مثل إشغال اللسان بالقول المعروف، والقول السديد، والقول الحسن، كالذكر والقرآن والتسبيح، والكلام الطيب مع الناس، كالثناء عليهم باعتدال، والدعاء لهم، وذكر محاسنهم، وتطييب نفوسهم، وتقديم الخبرة والمشورة والتجربة والنصيحة لهم، وما شاكل هذا من المعاني الجميلة التي تعود على صاحبها بالنفع، وعلى المجتمع بالتواصل والترابط والنجاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو قال لي فرعونُ: باركَ اللهُ فيك. لقلْتُ: وفيك».

رمضان شهر القرآن، ابتدأ نزول القرآن فيه، ونزل القرآن بذكر الصوم وإيجابه، وشرع الإكثار من القراءة فيه، حتى كان جبريلُ عليه السلام يدارس النبيَّ صلى الله عليه وسلم القرآنَ في شهر رمضان خاصة؛ تأكيدًا

على أهمية الترابط بين الشهر والذكر، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف».

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرؤوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزَّهْراوين: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنهما تأتيان يومَ القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صَوافَّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورةَ البقرة؛ فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرةٌ، ولا تستطيعها البَطَلَةُ». قال معاوية بن سلَّام: بلغني أن البَطَلَةَ: السحرةَ.

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرة الكِرام البَرَرة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران».

وقد أمر الله بتلاوة كتابه، وبيَّن أن هذا دَأبُ الصالحين الصادقين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

هو الكتابُ الذي مَن قام يقرؤه

كأنَّما خاطب الرحمنَ بالكَلِمِ

هو الصِّراط هو الحَبل المتينُ هو الْـ

ـميزانُ والعُروة الوُثقى لمعتصِمِ

هو البيانُ هو الذِّكرُ الحكيمُ هو التْـ

ـتَفصيل فاقنعْ به من كلِّ منبَهِمِ

فقراءة القرآن هي التجارة الرابحة، وذلك في جميع الدُّهور، وعلى مدى الأيام والشهور؛ لكنَّ لها في رمضان شأنًا أعظم وآكد؛ فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانت تزيد عنايته بالقرآن في رمضان، وذلك لأسباب:

الأول: أن ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، فإن الليلة التي نزل فيها جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1-4]، . كانت في شهر رمضان.

وقصة نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم جاءت في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أولُ ما بُدِئ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِن الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءَت مثلَ فَلَقِ الصبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغارِ حراءٍ، فيتحنَّثُ فيه -وهو التعبُّدُ- الليالِيَ ذواتِ العددِ، قبلَ أن يَنْزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجِعُ إلى خديجةَ، فيتزوَّدُ لمثلِها، حتى جاءَه الحقُّ وهو في غارِ حِرَاءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: «اقرأْ. قال: ما أنا بقارئٍ. قال: فأخذَني فغطَّني، حتى بلَغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلَني، فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخذَني فغطَّني الثانيةَ، حتى بلغَ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ. فقلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ٣﴾ [العلق: 1-3]». فرجَع بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يرجُفُ فؤادُهُ، فدخَل على خديجةَ بنتِ خُويلِدٍ رضي الله عنها، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني». فزمَّلوه، حتى

ذهَب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجةَ وأخبَرها الخبرَ: «لقد خَشِيتُ على نفسي».
فقالت خديجةُ: كلا واللهِ، ما يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا؛ إنك لتصلُ الرَّحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقِّ.
فانطلَقَتْ به خديجةُ، حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بن عبدِ العُزَّى ابنَ عمِّ خديجةَ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عمِّ، اسمعْ من ابن أخيك. فقال له ورقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟ فأخبَره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ الذي نَزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكونُ حيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قومُك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟!». قال: نعم، لم يَأْتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أَنصُرْك نصرًا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوفِّي، وفَتَرَ الوحيُّ.

هذه الحادثة كانت في رمضان، كما هو مقتضى ما ذكره ابنُ إسحاق، وأبو سليمان الدمشقي، فيما نقله ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير»، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]، أي: ابتدأ إنزاله فيه.

ويحتمل أن يكون هذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: 3] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] ، إلى آخر السورة، ذلك أن ليلة القدر من رمضان.

الثاني: أن رمضان هو الذي أُنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما أطبق السلف على أن القرآن فُصِل من اللوح المحفوظ وأُنزِل إلى بيت العزة في سماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان، ثم كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم نجومًا بحسب الوقائع والأحوال، كما هو معروف في أسباب النزول.

وقد نُقِل هذا المعنى عن جماعة من الصحابة، كواثلة بن الأَسْقَع، وعائشة رضي الله عنهما، وجاء مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ونُقِلَ إن الحسن بن علي لما استشهد أبوه علي رضي الله عنهما، وكان ذلك في رمضان، سنة (40هـ) -قام فخطبَ الناسَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، والله، لقد قتلتم الليلةَ رجلًا في ليلةٍ نزل فيها القرآن، وفيها رُفع عيسى ابنُ مريم، وفيها قُتل يُوشع بنُ نُون، فتى موسى عليه السلام، وفيها تِيْبَ على بني إسرائيل».

وفي ذلك يقول أبو الأسود الدُّؤلي:

أفي شهرِ الصيامِ فجَعتُمونا

بخير الخلق طُرًّا أجمعِينَا

قتلتم خيرَ مَن ركب المَطَايا

وذلَّلَها ومَن ركب السَّفينَا

ومَن لبس النِّعالَ ومَن حذَاها

ومَن قرأ المثاني والمِئِينَا

إذا استقبلتَ وجهَ أبي حُسينٍ

رأيتَ البدرَ فوقَ الناظرينا

لقد علمتْ قريشٌ حيثُ كانت

بأنك خيرُها حسبًا ودينَا.

ومراد أبي الأسود فضله على مَن سواه في وقته رضي الله عنه.

والآثار عن السلف كثيرة في أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، التي هي من رمضان.

الثالث: أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم في رمضان، فيدارسه القرآن كل ليلة، كما في «الصحيحين» عن ابن عباس

رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضانَ، فيدارسُهُ القرآنَ، فلَرسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الرِّيحِ الْمُرْسلة».

وفي العام الذي تُوُفِّي فيه الرسولُ صلى الله عليه وسلم عارضه جبريلُ القرآنَ مرَّتين.

إذن، فقد كان رمضان مخصَّصًا لتدارس القرآن بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة، بحيث يتم في كل رمضان مراجعة ما أُنزل من القرآن، فيقرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجبريلُ يستمع إليه، ومن خلال المعارضة يتم إثبات ما أمر الله تعالى بإثباته، ونسخ ما أمر بنسخه﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد: 39]، وقد يتم تدارس معانيه أيضًا.

وقد أخذ أهل العلم من ذلك: مشروعية ختم القرآن في رمضان؛ لأن جبريلَ والنبيَّ عليهما صلوات الله وسلامه، كانا يُنْهِيَان في كل رمضان ما سبق نزوله من القرآن، وفي آخر سنة أنهياه مرتين بالمدارسة والمعارضة، فهذا دليل على أنه يُستحب للمسلم أن يقرأ القرآن الكريم كاملًا في رمضان مرة أو

أكثر؛ بل إن السُّنة أن يختم القرآن في كل شهر مرة، وإن استطاع ففي كل أسبوع مرة، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان السلف يخصِّصون جزءًا كبيرًا من وقتهم في رمضان لقراءة القرآن، حتى كان الزهري إذا دخل رمضانُ، فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

وكان الإمام مالك إذا دخل رمضانُ ترك قراءةَ الحديث، وأقبل على قراءة القرآن الكريم من المصحف.

وحول موضوع العناية بالقرآن ينبغي الإشارة إلى تنبيهات:

الأولى: أن بعض الناس يظنون أن ختم القرآن مقصود لذاته، فَيَهُذُّ الواحدُ منهم القرآنَ هَذَّ الشِّعر -والهذُّ: سرعة القراءة- بدون تدبر، ولا خشوع، ولا ترقيق للقلب، ولا وقوف عند المعاني؛ بل همه الوصول إلى آخر السورة أو آخر الجزء، أو آخر المصحف.

وليس لهذا أُنزل القرآن؛ فإن الله تعالى يقول في هذا الكتاب الكريم نفسه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29] ، وقال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: 4]، فمن الخطأ أن يحمل أحدَنَا الحماسُ إذا سمع بعض الآثار عن السلف التي تفيد كثرة ختمهم للقرآن، فيمضي يهذُّ القرآن

هذًّا، غير متمعِّن ولا متدبِّر، ولا مراعٍ لأحكام التجويد، أو مخارج الحروف الصحيحة قدر الإمكان.

أن يقرأ المؤمن بعضًا من القرآن: جزءًا، أو حزبًا، أو سورة بتدبُّر وتفكُّر، خير مَن أن يختم القرآن كاملًا بدون أن يعي شيئًا منه.

وقد ثبت في «الموطأ» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه أخذ في تحصيل سورة البقرة ثماني سنين يتعلَّمها.

وهل كان ابن عمر رضي الله عنهما محتاجًا أن يمكث ثماني سنين ليستظهر سورة البقرة؟ كلا! فإن صبيان الكتاب يحفظون القرآن كله في سنة أو سنتين، ولكنه استغرق ثماني سنين في سورة البقرة: يحفظها، ويتعلَّم معانيها، وأحكامها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ويقف عند ما ورد فيها.

ولأَنْ يقرأ الإنسان وحده ليتدبر ويتمعن ويخشع؛ خير من اجتماع على زعق وضجيج وأصوات، ولقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أنَّ من السبعة الذين يظلُّهم اللهُ في ظلِّه، يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه؛ الذي يذكر اللهَ خاليًا فيبكي، حيث قال صلى الله عليه وسلم: «ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا، ففاضتْ عينَاهُ».

وعموم النصوص تدل على أن الأجر متعلِّق بثلاثة:

1- الوقت الذي يقضيه في القراءة.

2- الجودة «المهارة».

3- الأثر الذي تُحدثه القراءة، ومنه التدبُّر والتأمُّل؛ لأنه المقصود الأعظم.

كيف يؤثِّر فينا القرآن، إذا كانت نفوسنا ملأى بآراء راسخة، ليس لدينا استعداد لتغييرها، وطبائع نفسية، وأذواق وأمزجة، هي جزء من شخصيتنا، وأقوال لفلان وفلان من العلماء أو الفقهاء أو الساسة أو غيرهم، وهي مقدَّمة لا يمكن تجاوزها، وشهوات سيطرت يعزُّ الخلاص منها؟!

لكي يتأثر القارئ، عليه أولًا أن يملك الاستعداد للتأثُّر وتهيئة النفس والعقل لاستقبال النص وفهمه وتفعيله.

كيف نسلِّم أنفسنا للقرآن؟ أن ننتصر على الدوافع الغريزية، كما انتصر النبيُّ صلى الله عليه وسلم حين قال: «أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم مَن يعبده، لا يشرك به شيئًا». مع وضعهم سَلَى الجزور عليه وهو يصلِّي.

وكما انتصر أبو بكر رضي الله عنه حين قال: «أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله؟!». وهم يضربونه ويَمْرُطون شَعْره.

لنجرِّب التعامل مع العصبية القبلية، أو العادات الاجتماعية، أو المراسيم السلطوية، أو الكبرياء الفردية، أن نتعلَّم التواضع والهدوء والتراجع والاعتذار والمصارحة في الأخطاء مع أنفسنا قبل الآخرين.

الثانية: احترام المصحف واجب على كل مسلم يعرف الله ويعرف كلامه، وتعمُّد إهانة المصحف عمل بشع دنيء منحط.

قد يفهم الناس أن يصدر من حقود غلب عليه الغيظ من انتشار الإسلام؛ فتصرَّف بطريقة تتناسب مع أخلاقه وذوقه، وهي لا تزيد القرآن إلا رفعة وانتشارًا، ولا تزيد فاعلها إلا ذلة وانحدارًا.

لكن أن تصدر الإهانة من مسلمين، فهذا هو الأمر الغريب العجيب!

لذا شُرِع لنا الوضوء عند مس المصحف؟ وهو واجب عند الأئمة الأربعة.

يقول تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: 79]. وفي الحديث: «لا يمس القرآن إلا طاهر». وهو حديث حسن، تلقَّاه العلماء بالقبول، واشتهر شهرةً تُغني عن إسناده؛ كما قال الإمام ابن عبد البر، وله شواهد كثيرة، ذكرتُها في «شرح بلوغ المرام».

فكيف يرمي بعض الطلاب المصحف أو جزءًا منه بعد الفراغ من الدراسة في أماكن غير لائقة، بل أي كتاب دراسي آخر، كيف يُرمى بطريقة لا تليق بالعلم، فكيف بالقرآن العظيم؟!

وكيف يتجرَّأ آخرون على أن يكتبوا على المصحف ما لا يليق من الكلمات، تشجيعًا لفريق، أو سبًّا لفريق آخر، أو سخرية بزملائهم، أو عبارات حب وغرام؟!

المجتمعات الإسلامية وحكوماتها مطالبة بموقِف صارم ممن امتهن الأنبياء وكتبهم السماوية، وعلى رأسها القرآن الكريم، وإعلان الرفض والشجب والاستنكار، واستصدار قرارات دولية تحرِّم ذلك وتدينه وتجرِّم فاعله؛ باعتباره نشرًا للكراهية والعنصرية.

ومطالبة بتربية أبنائها وبناتها على تعظيم القرآن وحبِّه واحترامه وتلاوته عن إيمان ورغبة، وليس كمقرَّر دراسي ينتهي بنهاية العام.

الثالثة: حول «الختمة»، والمراد بها: قراءة القرآن في صلاة التراويح والقيام، ثم الدعاء المعروف عند إتمام القرآن الكريم.

والناس يكثرون الجدل حول هذه المسألة:

فمنهم مَن يقول: إنها بدعة. ولا يفصِّل.

ومنهم مَن يقول: إنها سنة. ويعمل بها.

ويمكن النظر إليها بشيء من التفصيل كما يلي:

أولًا: إتمام القرآن الكريم في صلاة التراويح والقيام مشروع كما سبق، قال ابن تيمية: «وأما قراءة القرآن في التراويح، فمستحب باتفاق أئمة المسلمين؛ بل من أجل مقصود التراويح قراءة القرآن فيها؛ ليسمع المسلمون كلام الله».

ثانيًا: الدعاء عند ختم القرآن الكريم، فالمذهب: أنه مستحب، وبه قال متأخِّرو الحنفية والشافعية؛ لحديث العِرْباض بن سارية رضي الله عنه عند الطبراني في «الكبير»: «مَن ختم القرآن، فله دعوةٌ مستجابةٌ». وفي إسناده عبد الحميد بن سليمان الخزاعي، وهو ضعيف.

وقال بعض الحنفية: يستحب خارج الصلاة، ويكره داخلها. وقال بعض المالكية: لا يشرع، لا داخل الصلاة ولا خارجها؛ بل هو بدعة؛ لعدم وروده.

والحاصل أن دعاء ختم القرآن خارج الصلاة قد صح من فعل أنس رضي الله عنه، أنه كان إذا ختم جمع أهله وولده فدعا لهم. كما في «مصنف ابن أبي شيبة»، و«مسند الدارمي».

وعن الحكم قال: أرسل مجاهدٌ وعَبْدَةُ بنُ أبي لُبابةَ قالا: إنا أرسلنا إليك، أنا نريد أن نختم القرآن، وكان يقال: إن الدعاء يُستجاب عند ختم القرآن. فلما فرغوا من ختم القرآن دعوا بدعوات.

وأما داخل الصلاة، فلم يصح فيه شيء؛ لكن لو جعل الدعاء في قنوت الوتر، سواء في التراويح أو في القيام، فهذا سهَّل فيه الإمام أحمد؛ لأنه محل للدعاء، ولأن الوتر هو الموضع الذي ثبت شرعًا أنه مكان الدعاء، وقد علَّم النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحسنَ رضي الله عنه -كما في «المسند»، و«السنن» - أن يقولَ في الوتر: «اللهمَّ اهدني فيمَن هَدَيْتَ، وعافني فيمَن عافيتَ، وتولَّني فيمَن تولَّيتَ، وبارك لي فيما أعطيتَ، وقِني شرَّ ما قضيتَ، فإنك تقضِي ولا يُقضَى عليك، إنه لا يذِلُّ مَن واليتَ، تباركتَ ربَّنا وتعاليتَ». فالسنة أن يكون الدعاء في الوتر، سواء كان ذلك قبل الركوع أو بعده.

وجاء عن إبراهيم النخعي عندما سُئل عن مقدار القنوت في الوتر، فقال: «بمقدار سورة الانفطار».

وعندما ذُكر هذا لأحمد قال: هذا قليل. وأجاز الزيادة عليه.

وبالنظر لما نُقل في قنوت النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، وقنوت أصحابه رضي الله عنهم؛ نجد البون الكبير بين مقدار ما قنتوا به وما يفعله

بعض الأئمة اليوم كمًّا وكيفًا، مما يصل إلى حد الإطالة والإملال، والخروج عن المقصود في الدعاء، فضلًا عن أنه يُتعِب مَن وراءهم، ويُكرِّه إليهم عبادة ربهم.

ولا مانع من إطالته دون تكلُّف بمناسبة ختم القرآن، وإضافة أدعية تتعلَّق بالقرآن الكريم، مثل ما يقول بعض الأئمة: اللهمَّ انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم، اللهمَّ اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك يا أرحم الراحمين، اللهمَّ اجعل القرآن لنا شفيعًا...

أما الدعاء الشائع عند الناس الذي يبدأ بقولهم: «صدق الله العظيم الذي لم يزل عليمًا قديرًا، صدق الله ومَن أصدق من الله قيلًا، صدق الله العظيم، وبلَّغ رسولُه الكريم، ونحن على ما قال ربنا من الشاهدين، ولما أوجب وأنزل غير جاحدين...» إلخ؛ فهذا مما انتشر عند الناس، حتى ظنه بعضهم من السنن، وهو غير وارد بنصه، وإن كانت معانيه في الجملة حسنة، ولو قرأه إمام لم يحسن مخالفة المأمومين له، ولا أن يكون ذلك سببًا لإثارة الخلاف، والقيل والقال، فالأمر يسير، والحرص على وحدة القلوب وسلامة النفوس أهم من مراعاة فرعٍ أو جزئيةٍ من هذا القبيل.

على أن الأولى أن يدعو الإمام بما ورد أو جنسِ ما ورد، ويتجنَّب الأسجاع المتكلَّفة، والألفاظ المتقعَّرة، والمعاني الغامضة؛ لأن الدعاء في هذه الحال عبادة جماعية، يشترك فيها الداعي والمؤمِّن.

وبعض الناس يزيد في دعاء ختم القرآن مواعظ تتعلَّق بذكر القبر والصراط والبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، ولا شك أن هذا ليس محله؛ بل هذا من الاعتداء المنهي عنه.

إذن، فالتفصيل في مسألة الختمة أمر جيد، وهو قول وسط بين المانعين بإطلاق، والمجيزين بإطلاق.

على أن الأمر لا ينبغي التشديد فيه، فحتى الذين يقرؤون دعاء الختمة في غير الوتر -أي يقرؤونه في صلاة ثنائية من التراويح-يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقنت في صلاة الفجر، كما ثبت ذلك عنه مرات؛ بل ثبت عنه القنوت في غير صلاة الفجر؛ في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، في أحاديث عديدة، وهذا من هذا عندهم!

والقدر المتفق عليه هو إقبال الناس على صلاتهم، وظهور أثرها في معاملاتهم، وفي حسن إدارة الخلاف فيما بينهم، ووضع الأمور في نصابها، وعدم الإسراف في الإنكار.

فمن الخطأ الكبير أن يتحوَّل القرآن والذكر إلى مجادلات ومقاولات بين الناس، مع الغفلة عن المعنى العظيم الذي ترشد إليه، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176].

وقد دلَّت السنة على كراهية المراء والجِدال في غير فائدة؛ كما في الحديث حين خرج صلى الله عليه وسلم عليهم وهو يريد أن يخبرهم بليلة القدر، فتلاحى رجلان منهم، فقال: «إني خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، وإنه تلاحى فلانٌ وفلانٌ، فرُفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم...».

فنسأل الله العظيم أن يفتح عقولنا وقلوبنا لفهم القرآن وتدبُّره والغوص في أسراره، والاعتبار بمواعظه، والوقوف عند حدوده، إنه جَوَاد كريم.

فديتُكَ زائرًا في كلِّ عامِ

تُحيَّا بالتَّحيةِ والسَّلامِ

وتُقبل كالغمام يَفِيض حِينًا

ويَبقى بعده أثرُ الغمامِ

وكم في الناس من كَلِف مَشُوقٍ

إليك وكم شجي مُستهامِ

ولم أرَ قبل حبِّك من حبيبٍ

كفى العشاقَ لوعات الغرامِ

فلو تَدري العوالمُ ما درينا

لحنَّتْ للصلاة وللصِّيامِ.شهر القرآن

بقلم الدكتور سلمان العودة

من مجالس رمضانية

اللسان خُلِق للكلام، فلا شيء يحمي من زَلَلِه مثل إشغال اللسان بالقول المعروف، والقول السديد، والقول الحسن، كالذكر والقرآن والتسبيح، والكلام الطيب مع الناس، كالثناء عليهم باعتدال، والدعاء لهم، وذكر محاسنهم، وتطييب نفوسهم، وتقديم الخبرة والمشورة والتجربة والنصيحة لهم، وما شاكل هذا من المعاني الجميلة التي تعود على صاحبها بالنفع، وعلى المجتمع بالتواصل والترابط والنجاح.

قال تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة:

83]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لو قال لي فرعونُ: باركَ اللهُ فيك. لقلْتُ: وفيك».

رمضان شهر القرآن، ابتدأ نزول القرآن فيه، ونزل القرآن بذكر الصوم وإيجابه، وشرع الإكثار من القراءة فيه، حتى كان جبريلُ عليه السلام يدارس النبيَّ صلى الله عليه وسلم القرآنَ في شهر رمضان خاصة؛ تأكيدًا على أهمية الترابط بين الشهر والذكر، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنةٌ، والحسنةٌ بعشر أمثالها، لا أقول: ﴿الم﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف».

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرؤوا القرآنَ؛ فإنه يأتي يومَ القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزَّهْراوين: البقرةَ وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنهما تأتيان يومَ القيامة

كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صَوافَّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورةَ البقرة؛ فإن أخذها بركةٌ، وتركها حَسْرةٌ، ولا تستطيعها البَطَلَةُ». قال معاوية بن سلَّام: بلغني أن البَطَلَةَ: السحرةَ.

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرة الكِرام البَرَرة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق، له أجران».

وقد أمر الله بتلاوة كتابه، وبيَّن أن هذا دَأبُ الصالحين الصادقين؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ۝ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

هو الكتابُ الذي مَن قام يقرؤه

كأنَّما خاطب الرحمنَ بالكَلِمِ

هو الصِّراط هو الحَبل المتينُ هو الْـ

ـميزانُ والعُروة الوُثقى لمعتصِمِ

هو البيانُ هو الذِّكرُ الحكيمُ هو التْـ

تَفصيل فاقنعْ به من كلِّ منبَهِمِ

فقراءة القرآن هي التجارة الرابحة، وذلك في جميع الدُّهور، وعلى مدى الأيام والشهور؛ لكنَّ لها في رمضان شأنًا أعظم وأكد؛ فإن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانت تزيد عنايته بالقرآن في رمضان، وذلك لأسباب:

الأول: أن ابتداء نزول القرآن كان في رمضان، فإن الليلة التي نزل فيها جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 1-4]. . كانت في شهر رمضان.

وقصة نزول جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم جاءت في «الصحيحين» عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أولُ ما بُدِئ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مِن الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءَت مثلَ فَلَقِ الصبحِ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغارِ حراءٍ، فيتحنَّثُ فيه -وهو التعبُّدُ- الليالِيَ ذواتِ العددِ، قبلَ أن يَنْزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لذلك، ثم يرجِعُ إلى خديجةَ، فيتزوَّدُ لمثلِها، حتى جاءَه الحقُّ وهو في غارِ حِرَاءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: «اقرأْ. قال: ما أنا بقارئٍ. قال: فأخذَني فغطَّني، حتى بلَغ مني الجَهْدَ، ثم أرسلَني، فقال: اقرأ. قلتُ: ما أنا بقارئٍ. فأخذَني فغطَّني الثانيةَ، حتى بلغَ مني الجَهْدَ، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ. فقلتُ:

ما أنا بقارئٍ. فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ٣﴾ [العلق: 1-3]». فرجَع بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يرجُفُ فؤادُهُ، فدخَل على خديجةَ بنتِ خُويلِدٍ رضي الله عنها، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني». فزمَّلوه، حتى ذهَب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجةَ وأخبَرها الخبرَ: «لقد خَشِيتُ على نفسي». فقالت خديجةُ: كلا والله، ما يُخْزِيكَ اللهُ أبدًا؛ إنك لتصلُ الرَّحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْري الضيفَ، وتُعين على نوائبِ الحقِّ. فانطلَقَتْ به خديجةُ، حتى أتت به ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بن عبدِ العُزَّى ابنَ عمِّ خديجةَ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العِبْرانيَّ، فيكتبُ من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالت له خديجةُ: يا ابنَ عمِّ، اسمعْ من ابن أخيك. فقال له ورقةُ: يا ابنَ أخي، ماذا ترى؟ فأخبَره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خبرَ ما رأى، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ الذي نَزَّل اللهُ على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكونُ حيًّا إذْ يُخْرِجُكَ قومُك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟!». قال: نعم، لم يَأْتِ رجلٌ قطُّ بمثلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يُدْرِكْني يومُك أَنصُرْك نصرًا مُؤَزَّرًا. ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أن تُوفِّي، وفَتَرَ الوحيُّ.

هذه الحادثة كانت في رمضان، كما هو مقتضى ما ذكره ابنُ إسحاق، وأبو سليمان الدمشقي، فيما نقله ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير»، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]، أي: ابتدأ إنزاله فيه.

ويحتمل أن يكون هذا هو معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: 3] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] ، إلى آخر السورة، ذلك أن ليلة القدر من رمضان.

الثاني: أن رمضان هو الذي أُنزل فيه القرآن من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا، كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكما أطبق السلف على أن القرآن فُصِل من اللوح المحفوظ وأُنزِل إلى بيت العزة في سماء الدنيا في ليلة القدر من رمضان، ثم كان ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم نجومًا بحسب الوقائع والأحوال، كما هو معروف في أسباب النزول.

وقد نُقِل هذا المعنى عن جماعة من الصحابة، كواثلة بن الأَسْقَع، وعائشة رضي الله عنهما، وجاء مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ونُقِلَ إن الحسن بن علي لما استشهد أبوه علي رضي الله عنهما، وكان ذلك في رمضان، سنة (40هـ) -قام فخطبَ الناسَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ، والله، لقد قتلتم الليلةَ رجلًا في ليلةٍ نزل فيها القرآن، وفيها

رُفع عيسى ابنُ مريم، وفيها قُتل يُوشع بنُ نُون، فتى موسى عليه السلام، وفيها تِيْبَ على بني إسرائيل».

وفي ذلك يقول أبو الأسود الدُّؤلي:

أفي شهرِ الصيامِ فجَعتُمونا

بخير الخلق طُرًّا أجمعِينَا

قتلتم خيرَ مَن ركب المَطَايا

وذلَّلَها ومَن ركب السَّفينَا

ومَن لبس النِّعالَ ومَن حذَاها

ومَن قرأ المثاني والمِئِينَا

إذا استقبلتَ وجهَ أبي حُسينٍ

رأيتَ البدرَ فوقَ الناظرينا

لقد علمتْ قريشٌ حيثُ كانت

بأنك خيرُها حسبًا ودينًا.

ومراد أبي الأسود فضله على مَن سواه في وقته رضي الله عنه.

والآثار عن السلف كثيرة في أن القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر، التي هي من رمضان.

الثالث: أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم في رمضان، فيدارسه القرآن كل ليلة، كما في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضانَ حين يلقاه جبريلُ، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضانَ، فيدارسُهُ القرآنَ، فلَرسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودُ بالخير من الرِّيح الْمُرْسلة».

وفي العام الذي تُوُفِّي فيه الرسولُ صلى الله عليه وسلم عارضه جبريلُ القرآنَ مرَّتين.

إذن، فقد كان رمضان مخصَّصًا لتدارس القرآن بين جبريل عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في كل سنة، بحيث يتم في كل رمضان مراجعة ما أُنزل من القرآن، فيقرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجبريلُ يستمع إليه، ومن خلال المعارضة يتم إثبات ما أمر الله تعالى بإثباته، ونسخ ما أمر بنسخه﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[الرعد: 39]، وقد يتم تدارس معانيه أيضًا.

وقد أخذ أهل العلم من ذلك: مشروعية ختم القرآن في رمضان؛ لأن جبريلَ والنبيَّ عليهما صلوات الله وسلامه، كانا يُنْهِيَان في كل رمضان ما سبق نزوله من القرآن، وفي آخر سنة أنهياه مرتين بالمدارسة والمعارضة، فهذا دليل على أنه يُستحب للمسلم أن يقرأ القرآن الكريم كاملًا في رمضان مرة أو أكثر؛ بل إن السُّنة أن يختم القرآن في كل شهر مرة، وإن استطاع ففي كل أسبوع مرة، كما صح ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان السلف يخصِّصون جزءًا كبيرًا من وقتهم في رمضان لقراءة القرآن، حتى كان الزهري إذا دخل رمضانُ، فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام.

وكان الإمام مالك إذا دخل رمضانُ ترك قراءةَ الحديث، وأقبل على قراءة القرآن الكريم من المصحف.

الحلقة الخامسة

من أحكام الصيام

إن الكلام عن أحكام الصيام يطول، ولكن لا بأس بالحديث عن أبرزها باختصار:

أولًا: ما يثبت به دخول رمضان:

يثبت دخوله بإكمال عدة شعبان ثلاثين يومًا، أو برؤية هلال رمضان؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتُمُوهُ فصُومُوا، وإذا رأيتُمُوهُ فأفطروا، فإن غُمَّ عليكم فاقدُرُوا له». وفي لفظ: «فأكملُوا عدَّةَ شعبانَ ثلاثينَ يومًا».

ولا يُعتمد على مجرد الحَدْس أو الظن أو الرؤيا.

ومن طريف ما يُروى: أن القاضي حسين -من فقهاء الشافعية- جاءه رجلٌ، فقال له: أنا رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي: إن الليلة من رمضان. فقال القاضي حسين: إن الذي تزعم أنك رأيته في المنام، رآه الصحابة في اليقظة، وقال لهم: «صوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته».

ولا يجوز -على الراجح- أن يصومَ المسلمُ آخر يوم من شعبان احتياطًا لرمضان، وأما مَن صام ذلك اليوم لأنه يوافق يومًا كان يصومه؛ فلا حرج، كأن يصومه لأنه يوافق يوم الاثنين أو الخميس، أو لأنه يصوم يومًا ويفطر يومًا، فوافق يوم صومه آخر يوم من شعبان، أو غير ذلك؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يتقدَّمنَّ أحدُكم رمضانَ بصوم يومٍ أو يومين، إلا أن يكونَ رجلٌ يصومُ صومَهُ، فلَيْصُمْ ذلكَ اليومَ».

ثانيًا: النية:

لابد من تبييت النية في صوم الفرض؛ لما روت حفصةُ رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن لم يبيِّت الصيام قبل الفجر، فلا صيامَ له».

أما صيام النفل، فلا يجب فيه تبييت النية من الليل؛ بل يجوز بنية من الليل أو النهار، فلو نوى المرءُ صوم النافلة بعد طلوع الشمس -مثلًا- فصومه صحيح، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فقال: «هل عندكم شيءٌ؟». فقلنا: لا. قال: «فإني إذن صائمٌ».

وهنا تنبيهان حول تبييت النية:

الأول: بعض الناس يوسوسون في النية، ويتكلَّفون ويشكُّون في تبييتهم لنية الصيام، وهذا من تلبيس إبليس الذي يجب أن لا يلتفت إليه الصائمون؛ فإن المسلم بمجرد دخول رمضان يستقر في نفسه أنه سيصوم رمضان كله، وهذا يكفي.

الثاني: أن الليل يشمل جميع المدة التي قبل طلوع الفجر، فلو نام أحد بدون أن يعلم أن تلك الليلة من رمضان، ثم استيقظ قبل طلوع الفجر، وعلم أن الليلة من رمضان، وأمسك؛ لكان ذلك كافيًا، وليس المقصود بتبييت النية أنه يلزمه أن ينام وقد نوى أنه سوف يصوم.

ثالثًا: السُّحور:

أمَر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالسُّحور، كما في الحديث المتفق عليه عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «تسحروا؛ فإن في السَّحور بركةً».

وفي «صحيح مسلم» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «فَصْلُ ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب؛ أكلةُ السَّحر».

فاليهود والنصارى لا يتسحرون؛ ومخالفةً لهم أَمَرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المؤمنينَ بأن يتسحروا، فينبغي الحرص على السحور، ولو على شربة ماء، إن لم يجد المسلم غيرها.

رابعًا: الإفطار:

يستحب تعجيل الفطر، وتأخير السحور، كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال الناسُ بخير ما عجَّلوا الفطر». متفق عليه.

وفي «المسند» من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه: «لا تزالُ أمتي بخير ما عجَّلوا الإفطارَ، وأخَّروا السُّحورَ».

وفي «صحيح مسلم» أن عائشة رضي الله عنها سُئلت عن رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما يعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاة، والآخر يؤخِّر الإفطار ويؤخِّر الصلاة: أيهما أفضل؟ فقالت عن

الذي يعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاة: «كذلك كان يصنع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم».

فيستحب للصائم أن يبادر بالفطر بمجرد ما يتيقن غروب الشمس، وأن يفطر على رطب، فإن لم يجد فعلى تمر، فإن لم يجد حَسَا حَسَوَاتٍ من ماء، كما رَوى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه كان يُفطر على رُطَبَاتٍ، فإن لم يجد فعلى تمرات، فإن لم يجد حَسَا حسَوَاتٍ من ماء. ومعنى حسا حسوات، أي: تجرع جرعة بعد جرعة.

ويحسن أن يقول عند الإفطار: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وابتلَّتِ العروقُ، وثَبَتَ الأجرُ إن شاء الله».

وهذا أصح ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم عند الإفطار، ولا يثبت أدعية خاصة للإفطار؛ لكن يدعو بما شاء من خير الدنيا والآخرة.

خامسًا: المفطِّرات:

المفطِّرات هي التي تفسد الصوم وتوجِب القضاء، وهي:

أولًا: الأكل والشرب والجماع، إذا تعمَّد الصائم شيئًا منها، من غير إكراه ولا نسيان، فإنه يفسد صومه بنص القرآن، وإجماع أهل العلم.

قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187].

فمَن أفطر بالأكل أو الشرب عمدًا، فعليه التوبة والاستغفار، وأن يقضي يومًا مكان يومه الذي أفسد صومه فيه، وليس عليه كفارة.

وأما من أفطر بالجِمَاع، فإن عليه أربعة أمور:

1- يمسك بقية اليوم؛ لأن هذا فطر غير مشروع، فليس له أن يأكل أو يشرب حتى تغرب الشمس.
2- التوبة؛ لأنه ارتكب إثمًا عظيمًا يُوجِب التوبة والإنابة.
3- يقضي اليوم الذي جامع فيه.
4- عليه الكفارة، وهي عتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، فإن لم يجد سقطت عنه.

ثانيًا: القيء عمدًا، وهو أن يتعمد المرء إفراغ ما في معدته، إما بإدخال إصبعه في فمه، أو بشم شيء يهيِّج المعدة، أو بغير ذلك، فإذا بدر من الصائم هذا العمل فقد فسد صومه، وعليه قضاء يومه ذلك.

وأما مَن غلبه القيء بدون إرادة منه أو تعمُّد، فصومه صحيح، ولا قضاء عليه.

وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنَ ذرَعَهُ القيءُ، فليس عليه قضاءٌ، ومَن استقاءَ عمدًا، فليَقْضِ».

وذكر ابن تيمية في كتابه «حقيقة الصيام» أنه حديث صحيح، وضعفه جماعة.

ثالثًا: الحيض والنفاس، فإن المرأة إذا حاضت أو نفست فإنه لا يصح منها الصوم بالإجماع.

فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يصيبُنا ذلك، فنُؤمرُ بقضاء الصوم، ولا نُؤمرُ بقضاء الصلاة».

هذه هي المفطِّرات المشهورة، ويدخل فيها ما كان في معنى أحدها؛ فالإبر المغذِّية التي يستغني بها الإنسانُ عن الأكل والشرب تفطر الصائم؛ لأنها في معنى الأكل والشرب، والاستمناء يفطر؛ لأنه في معنى الجماع.

وأما الحجامة، فالذي أميل إليه -والله أعلم- أنها لا تُفطر، وهو مذهب الجمهور، ومرويٌّ عن جماعة من الصحابة؛ كأبي سعيد، وابن مسعود، وسعد، وعائشة، وأم سلمة رضي الله عنهم، وبعض التابعين؛ كعروة، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

ومن الأدلة: حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «رخَّص النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحجامة للصائم».

وقوله: «رَخَّصَ» دليل على أنه كان ممنوعًا ثم رخّص فيه، فهذا حجة لمَن قالوا بأن آخر الأمرين هو الرخصة بالحجامة للصائم.

وكذلك حديث أنس رضي الله عنه أنه سُئل: أكنتم تكرهونَ الحجامةَ للصائم؟ قال: «لا، إلا من أجل الضعف».

والمعنى: لم يكونوا يكرهون الحجامة لكونها تفطر، ولكن كانوا يكرهونها خشية أن يضعف الصائم فيفطر.

وعن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى قال: حدَّثني رجلٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الحجامة، والمواصلة، ولم يحرِّمهما؛ إبقاءً على أصحابه....

وقوله: «إبقاءً على أصحابه» متعلِّق بقوله: «نَهى»؛ أي: نهى النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الحجامة رفقًا بأصحابه؛ لأن الإنسان إذا احتجم يضعف عن الصيام، وهكذا الوصال في رمضان، فإنه قد يضعف، فيكون النهي ليس نهي تحريم، وإنما هو نهي كراهة.

ومسائل الصيام من القضايا العامة التي تحتاج إلى بيان شافٍ، وأدلة ظاهرة، كما يقول ابن تيمية.

أما إخراج الدم من الإنسان بالطرق الحديثة، سواء كان إخراجه للتحليل أو لغيره، فقد ألحقه بعض العلماء بالحجامة؛ لأنه استخراج للدم من العروق على وجه يضر بالإنسان ويضعفه.

وآخرون رأوا أنه لا يلتحق به؛ لأنه قد يكون في الحجامة معنى لا يوجد في هذه الأشياء، وهذا أقرب.

فاستخراج الدم للتحليل أو غيره بطريقة مختلفة، الأقرب أنه لا يفطر، حتى على القول بالتفطير بالحجامة، ولذلك ينص بعضهم على أن الجرح اليسير لا يضر، ولا يلحق بالحجامة، وكذلك التبرُّع بالدم.

وثمة رخص عديدة امتنَّ اللهُ بها على الصائمين؛ رفعًا للحرج والمشقة عن العباد، منها:

أولًا: مَن أكل أو شرب ناسيًا وهو صائم؛ فصومه صحيح، ولا قضاء عليه، وهذا الراجح عند جمهور العلماء، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن نسيَ وهو صائمٌ، فأكَل أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنَّما أطْعَمَهُ اللهُ وسَقَاهُ.«

لكن يجب عليه إذا تذكَّر وفي فمه شيءٌ أن يلفظه، وكذلك يجب على الذي يراه وهو يأكل أن يذكِّره أنه في نهار رمضان؛ لأن هذا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى.

ثانيًا: أن مَن أصبَح جُنبًا من جماع أو احتلام؛ فإنه يصوم ولا شيء عليه، ويغتسل بعد ذلك، فتصح نية الصيام وهو جنب، خلافًا لما أفتى به أبو هريرة رضي الله عنه في أول الأمر، فإنَّ هذا كان أول الأمر ثم نسخ، ولحديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يصبحُ جنبًا وهو صائم، ثم يصوم ولا يفطر.

ثالثًا: السواك بعد الزوال، فإنه مرخَّص فيه للصائم بعد الزوال؛ بل هو مستحب في المواضع التي يستحب فيها في سائر الأحوال، وسيأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالى.

رابعًا: المضمضة والاستنشاق ينبغي أن لا يبالغ فيهما؛ خشية أن يصل شيء من الماء إلى حلقه؛ ففي حديث لَقِيط بن صَبِرَة رضي الله عنه، أن النبيَّ

صلى الله عليه وسلم قال له: «وبالغ في الاستنشاق، إلا أن تكون صائمًا». وفي بعض الروايات: «وبالِغْ في المضمضة والاستنشاق، إلا أن تكون صائمًا». وهي زيادة لا تثبت.

خامسًا: جواز الفطر في نهار رمضان للمسافر، وهو أفضل من الصوم، إن كان الصوم يشق عليه، حتى لو كان سفره في الطائرة، أو في سيارة مريحة، أو نحو ذلك.

اللهم فقهنا في ديننا، وعلِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا، يا أرحم الراحمين.

الحلقة السادسة

رمضان شهر القيام

رمضان شهر القيام، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 1-5].

دعوة إلى النهوض والمناجاة، وإعداد للمهمة الثقيلة التي تنوء بحملها الجبال الراسيات.

يقول سبحانه في صفة عباده المحسنين: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: 17-18].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أفضلُ الصلاة بعد الفريضة: صلاةُ الليل».

وفي «جامع الترمذي» عن عبد الله بن سلَام رضي الله عنه قال: لما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، انجفَلَ الناس إليه، وقيل: قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. فجئتُ في الناس لأنظر إليه، فلما اسْتبنتُ وجهَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، عرفتُ أن وجهه ليس بوجه كذَّاب،

وكان أولُ شيء تكلَّم به أن قال: «أيها الناسُ، أَفْشُوا السَّلامَ، وأَطْعِموا الطَّعامَ، وصلُّوا والناسُ نيامٌ، تدخلوا الجنةَ بسلَامٍ».

فضل قيام الليل عظيم، بدلالة تلك النصوص، وهو دأب الصالحين، وصفة المؤمنين، وشعار الناجين، ومن الحكمة أن يكون للمسلم من ذلك حظٌّ قلَّ أو كَثُرَ.

وفي قيام رمضان خاصة يقول النبيُّ صلى الله عليه وسلم -في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه-: «مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه».

وقد ثبت أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قام بأصحابه في رمضان، كما في «الصحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات ليلة من جوف الليل، فصلَّى في المسجد، فصلَّى رجالٌ بصلاته، فأصبَح الناسُ فتحدَّثوا؛ فاجتمَع أكثرُ منهم، فصلَّوا معه، فأصبَح الناسُ فتحدَّثوا؛ فكَثُرَ أهلُ المسجد من الليلة الثالثة، فخرَج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فصلُّوا بصلاته، فلما كانت الليلةُ الرابعةُ، عَجَزَ المسجدُ عن أهله، فلم يخرج إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فَطَفِقَ رجالٌ منهم يقولونَ: الصلاةَ! فلم يخرج إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتى خَرَجَ لصلاة الصبح، فلما قضى الفجرَ أقبلَ على الناس،

فتشهَّد، ثم قال: «أما بعدُ، فإنه لم يَخْفَ عليَّ مكانُكُم، لكني خَشِيتُ أن تفرضَ عليكم، فتعجزوا عنها».

ورَوى أهلُ «السنن» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صُمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا شيئًا منه، حتى بقيَ سَبْعُ ليالٍ، فقامَ بنا ليلةَ السابعة، حتى مضى نحوٌ من ثلث الليل، ثم كانت الليلةُ السادسةُ التي تليها فلم يقمها، حتى كانت الخامسةُ التي تليها، ثم قام بنا حتى مضى نحوٌ من شَطْر الليل، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو نَفَّلْتَنَا بقيةَ ليلتنا هذه. فقال: «إنه مَن قام مع الإمام حتى ينصرفَ، فإنه يَعْدِلُ قيامَ ليلةٍ». ثم كانت الرابعةُ التي تليها، فلم يقمها، حتى كانت الثالثةُ التي تليها، قال: فجمع نساءَهُ وأهلَهُ واجتمعَ الناسُ، قال: فقام بنا حتى خشينا أن يفوتَنَا الفَلَاحُ. قيل: وما الفَلَاحُ؟ قال: السَّحور. قال: ثم لم يقم بنا شيئًا من بقية الشهر.

سبحانَ مَن عنَتِ الوجوهُ لوجهِهِ

وله سجودٌ أوجهٌ وجباهُ

طوعًا وكرهًا خاضعين لعزِّهِ

فلهُ عليها الطَّوْعُ والإكراهُ

سَلْ عنه ذرَّاتِ الوجود فإنَّها

تدعوهُ معبودًا لها ربَّاهُ

ما لي إذا ضاقتْ وُجوهُ مذاهبي

أحدٌ ألوذُ برُكنِه إلَّا هو

حجبتْهُ أسرارُ الجلالِ فدونه

تقِفُ الظُّنونُ وتَخرُسُ الأفواهُ

وحول قيام رمضان تنبيهات:

الأول: حول عدد صلاة التراويح:

فالناس مختلفون اختلافًا كبيرًا في عددها، من إحدى عشرة ركعة، إلى تسع وأربعين ركعة، وما بين هذين العددين، والذي يعنينا في هذا المقام أمور، منها:

أولًا: كم صلَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

أصح ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم ما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يزيدُ في رمضانَ، ولا في غيره على إحدَى عشْرَةَ ركعةً».

لكنه صلى الله عليه وسلم كان يطيلها ويحسنها، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث نفسه.

ثانيًا: ما الذي فعله الصحابة رضي الله عنهم؟

لما توفِّي النبيُّ صلى الله عليه وسلم زال الخوف أن تفرض صلاة التراويح؛ فأمر عمرُ رضي الله عنه المسلمينَ أن يجتمعوا على الصلاة؛ حيثُ دخَل المسجدَ فوجدهم أوزاعًا، يصلِّي الرجلُ لنفسه، ويصلِّي الرجلُ فيصلِّي بصلاته الرجلُ والرجلان والرهطُ... فرأى عمرُ أن يجمعهم على إمام واحد، فأمر أُبَيَّ بنَ كعبٍ وتميمَ بنَ أوسٍ الداريَّ رضي الله عنهما أن يصليا بالناس. فكم -يا تُرى- صليا بالناس؟

ورد في ذلك روايتان:

الأولى: أن عمرَ رضي الله عنه أمرهما أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة.

والثانية: أن تميمَ بنَ أوس الداريَّ وأُبَيَّ بنَ كعب رضي الله عنهما صلَّيا بالناس عشرين ركعة.

وفي رواية: إحدى وعشرين ركعة.

وفي رواية: ثلاثًا وعشرين ركعة.

وبعض أهل العلم حكم على رواية: «عشرين»، و«إحدى وعشرين»، و«ثلاث وعشرين» بالشذوذ.

وبعضهم جمع بينها؛ كما فعل الحافظ ابن حجر، حيث قال: «والجمع بين هذه الروايات ممكن، باختلاف الأحوال، ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها، فحيث يطيل القراءة تقل الركعات وبالعكس».

فهو يُحمل على التنوُّع والتعدُّد بحسب الأحوال وحاجة الناس، فأحيانًا كانوا يصلون إحدى عشرة، وأحيانًا إحدى وعشرين، وأحيانًا ثلاثًا وعشرين، بحسب نشاط الناس وقوتهم، فإن صلُّوا إحدى عشرة، أطالوا حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وإن صلُّوا إحدى وعشرين أو ثلاثًا وعشرين، خفَّفوها بحيث لا يشق ذلك على الناس.

وأما رواية «عشرين ركعة»، فعلى عدم حساب الوتر؛ فإنهم كانوا يقومون بعشرين ركعة، ثم يوترون بركعة أو بثلاث، كما رجَّح ذلك البيهقي وغيره.

وثمة احتمال آخر، وهو أن عمر رضي الله عنه أمرهما أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة -وهذا لم تختلف فيه الروايات- ولكنَّ أُبيًّا وتميمًا رضي الله عنهما صلَّيا بالناس عشرين، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين؛ فالأمر من عمر بإحدى عشرة، والفعل منهما كان بعشرين، أو إحدى

وعشرين، أو ثلاث وعشرين، وذلك قد يكون بناء على أمر عرض لهما، رأيَا فيه أن المصلحة أن يصليا إحدى وعشرين أو ثلاثًا وعشرين؛ لحاجة الناس إلى ذلك، كأن يكون الناس يستطيلون القيام والركوع والسجود وغيره حينما يصلُّون إحدى عشرة ركعة، فرأوا أن تكون الصلاة إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين، يخفِّفون فيها القيام والركوع والسجود؛ ليكون أمكنَ لهم في العبادة.

والأمر في ذلك قريب، والأظهر أن رواية إحدى عشرة أصح، وأن الأخرى دخلها شيء من الوهم أو اللبس، والله أعلم.

وسواء صلَّى الناس إحدى عشرة، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثًا وعشرين؛ فإن الأمر الذي ينبغي التنبيه إليه: أن ما ذهب إليه بعض أهل العلم من أنه لا تجوز الزيادة في التراويح على إحدى عشرة ركعة؛ قول ضعيف، لا ينبغي الالتفات إليه؛ لسببين:

الأول: لأن الأعرابي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن صلاة الليل، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «مَثْنَى مَثْنَى..».

وهذا الأعرابي ما كان يعرف صفة صلاة الليل، ولم يكن يعلم كم كان صلى الله عليه وسلم يصلِّي، وتأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، فأطلق صلى الله عليه وسلم ولم يقيِّد بعدد، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم

مع ذلك: «مثنى مثنى» أي: تُسَلِّم من كل ركعتين، ولم يحدِّد له في ذلك عددًا محدودًا؛ بل أطلق الأمر.

الثاني: أن النوافل المطلقة جائزة ليلًا ونهارًا، إلا في أوقات النهي، فلو صلَّى الإنسان قبل الظهر، أو بعد الظهر، أو بعد المغرب، أو بعد العشاء، أو في الضحى ما تيسر له: ركعتين، أو أربعًا، أو عشرًا، أو عشرين؛ فلا بأس، فهذه نوافل مطلقة، وجماهير الأمة - بما فيهم الأئمة الأربعة- على أنها لا تُحدُّ بعدد لا تجوز الزيادة عليه، وإن كان منهم مَن يقول: إن عددًا أفضل من عدد آخر.

قال القاضي عياض في «شرح مسلم»: «ولا خلاف أنه ليس في ذلك حدٌّ يزاد عليه ولا ينقص منه، وأن صلاة الليل من الفضائل والرغائب التي كلما زيد فيها زيد في الأجر والفضل».

التنبيه الثاني: أن الصلاة فرضها ونفلها شُرعت لتهذيب النفوس، وتصفية القلوب وتطهيرها من الحقد والحسد والبغضاء، وجعلها متآخية متحابة متقاربة، وهذا من أعظم مقاصد العبادات؛ فإن العبد إذا أقبل على صلاته رقَّ قلبه، وسَمتْ نفسه، فكيف يجوز أو يسوَّغ شرعًا أو عقلًا أن يكون هذا الأمر الذي شُرع لهذه المقاصد السامية مجالًا للخصام والتنافر والتباغض حول مسألة علمية تحتمل البحث والجدل بالتي هي أحسن؟

فهل يجوز أن تتحوَّل العبادة التي شرعها الله تعالى لتهذيب الأمة أفرادًا ومجتمعات ولجمع الكلمة، إلى ميدان لأضداد مقاصدها، فنسأل الله أن يرد الأمة إلى الفقه في دينه، والاجتماع عليه.

إن جمع الكلمة، وسلامة القلب، وطهارة النفس، من مقاصد الشرع المُجْمَع عليها عند جميع المسلمين، أما عدد الركعات فمن المختلف فيه، فكيف نقدِّم العناية بالمختلف فيه على العناية بالْمُجْمَع عليه؟!

التنبيه الثالث: بعض الناس يتتبَّعون الصوتَ الحسن ويصلُّون خلف صاحبه، وهذا لا بأس به؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أَذِنَ اللهُ لشيءٍ، ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسَنِ الصوت، يَتَغَنَّى بالقرآن يجهرُ به».

أي: ما استمع الله لشيء مثل استماعه لذلك الصوت.

وللصوت الحسن أثر في سكينة النفس وخشوعها، وغوصها على المعاني، وزوال السآمة والملل والتعب عنها.

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لأبي موسى رضي الله عنه: «لو رأيتَني وأنا أستمعُ لقراءتك البارحةَ، لقد أوتيتَ مِزمارًا من مَزَامير آل داودَ». قال: لو علمتُ مكانك، لحبَّرتُ لك تحبيرًا.

وقد أصبح الناسُ يعرفون مساجد تزدحم، وأئمة يُصلِّي خلفهم مئات الألوف في سائر بلاد المسلمين، كالمغرب وقطر والكويت ومصر وليبيا وغيرها، فالحمد لله على ذلك كثيرًا.

على أن صلاة المرء في مسجد حيِّه خير وأولى؛ لما فيها من إحياء المساجد، واجتماع الجيران والتعارف، ومجاهدة النفس.

وقد سُئل الإمام أحمد عن تتبُّع الأئمة، فقال: «انظر ما هو خير لقلبك فافعله».

أي: يبحث المرء عمَّا يعالج قلبه ويقوِّي يقينه، ويختار ما هو أدعى للخشوع والتأثُّر، ولا ينبغي تحجير ما وسَّع الله فيه، وهذا يقود إلى:

التنبيه الرابع: أن من المهم التوسعة في هذه الأمور على الناس؛ فإننا نعلم من هَدي الإسلام أنه دين يسر وسماحة.

ومن نماذج ذلك: ما جاء في الحديث المتفق عليه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع، فجعلوا يسألونه، فقال رجلٌ: لم أشعرْ، فحلقتُ قبل أن أذبحَ؟ قال: «اذبحْ ولا حَرَجَ». فجاء آخرُ فقال: لم أشعرْ،

فنحرتُ قبل أن أرمي؟ قال: «ارْمِ ولا حَرَجَ». فما سُئل يومئذ عن شيء قُدِّم ولا أُخِّر إلا قال: «افْعَلْ ولا حَرَجَ».

فكان صلى الله عليه وسلم يحب التوسعة على أمته، وهذا مسلك الراشدين من علماء الأمة عبر العصور.

ولذا يجب علينا في هذا العصر أن نبتعد عن المشقة على الناس في صلاة التراويح وفي غيرها.

ومن الابتعاد عن المشقة أن يراعي الإمام حال المأمومين، فلا يشق عليهم بكثرة الركعات ولا بتطويلها، بل يراعي الاعتدال وما يناسب الحال.

وقد روى مسلم في «صحيحه» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصلاة طولُ القنوتِ». وفي رواية: سُئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ الصلاة أفضلُ؟ قال: «طولُ القنوت».

قال ابن تيمية مبيِّنًا معنى هذا الحديث: «النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن أن طول القنوت أفضل الصلاة، وهو يتناول القنوت في حال السجود وحال القيام، وأن تطويل الصلاة قيامًا وركوعًا وسجودًا، أولى من تكثيرها قيامًا وركوعًا وسجودًا؛ لأن طول القنوت يحصل بتطويلها لا تكثيرها».

وهذا موافق من وجوه لقول الشافعي: «إن أطالوا القيام وأقلُّوا السجود فحسن، وأن أكثروا السجود وأخفوا القراءة فحسن، والأول أحب إليَّ».

وقد قال أحمد: «يقرأ بالقوم في شهر رمضان ما يخف على الناس، ولا يشق عليهم، لاسيما في الليالي القصار، والأمر على ما يحتمله الناس».

فليراع الأئمة ترك المشقة، وتأليف الناس على صلاة التراويح بتخفيفها وتسهيل إكمالها، والاعتناء بالقراءة، مع تهيئة جو المسجد وما حوله، وإبعاد كل ما هو سبب في الإزعاج أو المضايقة، أو تكدير نفوس وفود الله تعالى في بيته.

الحلقة السابعة

من معاني الصيام

فكم من عين دامعة، وكم من قلب خاشع، وكم من نفس آبت إلى ربها وانكسرت بين يديه، في هذه الأوقات الطيبة، والتجمعات التي تغشاها السَّكينة، وتنزَّل عليها الرحمة، وتحفُّها الملائكة، ويذكرها الله تعالى فيمَن عنده.

كتب الله لنا ثواب الصيام والقيام وجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنه سميع قريب مجيب الدعوات.

للصيام معانٍ عظيمة، ومقاصدُ سامية، لو تفكَّر فيها المؤمنُ مليًّا لطال عجبه، ولأدرك مدى عظمة هذا التشريع، مما يقطع به العقل أنه تعالى غني عن تعذيبنا، وفي «الصحيح» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى شيخًا يُهادَى بين ابنيهِ، فقال: «ما بالُ هذا؟». قالوا: نذر أن يمشي. قال: «إنَّ اللهَ عن تعذيب هذا نفسَه لغنيٌّ». وأمره أن يركب. وغنيٌّ عن أعمالنا، كما في الحديث القدسي: «إنكم لن تبلُغوا ضَرِّي فتضُرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني».

فمقصود العبادات إصلاح النفس وتزكيتها، وإصلاح المجتمع وبناؤه على أساس محكم ومتين.

ومن معاني الصيام:

أولًا: تحقيق العبودية لله والاستسلام له؛ وتدريب العبد على الطاعة والامتثال، وتذكيره بأنه عبد لله تعالى لا لغيره، ولهذا أمر سبحانه العبدَ أن يأكل في وقت، فلو صام لكان عاصيًا، كما في العيد، أو في مواصلة الصيام أيامًا متتالية دون فطر أو سحور، وفي أحوال أخرى يأمره سبحانه بالصوم، فلو أفطر لكان عاصيًا.

ويتحقق هذا المعنى في الإحرام؛ فالعبد يمتنع من أشياء في الإحرام، ويُؤمر بها في غيره؛ ليتذكَّر بها أنه عبدٌ لله يأتمر بأمره، ويقف عند حده.

وهذا معنى عظيم، لو أن الناس أدركوه وتفطنوا له في عباداتهم، لكان أثره ممتدًا في حياتهم كلِّها، وليس مقصورًا على الأركان الأربعة، فهو يجعل المسلم في أحواله مستعدًّا، إذا أُمر أن يُقدِم أقدم، وإذا أُمر أن يُحجِمَ أحجم، وإذا غلبته نفسه وزلَّ، سارع في الاعتذار والتنصُّل.

والعبودية لله من أعظم مقاصد العبادات، وبعض المسلمين يُخِلُّون بهذا المعنى؛ وقد يؤدُّون العبادة، لكن بلا روح ولا قلب، فلا تؤثِّر الأثر المطلوب في وجدانهم وسلوكهم وتفكيرهم وأنماط حياتهم وتعاملاتهم.

ولعَمْري، إن العبودية لله هي الحرية الحقَّة، فكمال الحرية في كمال العبودية.

ومما زادني شرفًا وتيهًا

وكدتُ بأخمَصي أطأُ الثُّرَيَّا

دخولي تحت قولك: ﴿يَا عِبَادِيَ ﴾ [العنكبوت: 56]

وأن صيَّرت أحمدَ لي نبيًّا

وقال آخر:

أطعتُ مطامِعي فاسْتَعْبَدتني

ولو أَنِّي قنعتُ لكنتُ حرًّا

ثانيًا: الصوم مرتبط بالإيمان؛ فهو عبادة سرية بين العبد وبين ربه، فالمرء بإمكانه أن لا يصوم، وإن أمسك طوال نهاره، وظهر للناس أنه صائم.

فامتناع العبد عن المفطرات مع قدرته عليها، دليل استشعاره اليقيني باطلاع ربه على سرائره وخفاياه.

ولو تأملت لوجدت هذا السرَّ الإيماني يجري في سائر العبادات، فالوضوء والغسل -مثلًا- يتطهر بهما العبدُ من الأحداث، ولو أتى إلى الصلاة دون طُهور لما علم به الناس، وكذلك الصلاة بأذكارها، من قراءة قرآن، وتسبيح في السجود والركوع، يقول المصلِّي ذلك سرًّا لا يسمعه مَن يجاوره، وما حمله على ذلك إلا إيمانه العميق بربه الذي يعلم السرَّ وأخفى: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: 7].

ثالثًا: أنه يربِّي العبد على التقوى؛ ولهذا قال الله جل جلاله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]؛ لأن الصائم يتذكر أنه لا يشرب ولا يأكل، مع أن هذا في الأصل مباح له؛ لأنه مرتبط مع الله بوعد، فهو ممسك ابتغاء ثواب الله سبحانه، فمن باب أولى أن يكُفَّ عن المعاصي التي يعرف أنها محرمة في كل الظروف.

ولهذا جاء في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن لم يَدَعْ قولَ الزُّور والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَهُ وشرابَهُ».

ومعنى الحديث: أن الله جل جلاله لم يشرع الصيام لحاجته إليكم أن تدعوا طعامكم وشرابكم، وإنما شرع الصيام من أجل أن تتدربوا على ترك قول الزور والعمل به، فإذا لم تتركوا قول الزور ولم تتركوا العمل به، فأي معنى لصيامكم؟! فإذا لم يحدث الصيام فيكم هذا المعنى، فصيامكم حينئذ غير ذي جدوى لهذه العلة.

وهذا معنى لطيف إذا تأمله الصائم وجده ظاهرًا، فالصوم يربِّي الإنسان على التقوى، وترك المحرمات كلها، من الغيبة، والنميمة، والفحش، والبهتان، وغيرها من الأخلاق السيئة.

رابعًا: الصوم تربية للمجتمع؛ فالصائم عندما يرى مَن حوله صيامًا، يحس بروح المجموع، وهذا من بين الأسباب التي سهل لأجلها صوم الفرض، فصائم رمضان أينما ذهب وجد مَن حوله صائمين، فيستشعر مشاركة الآخرين له، وأنه يقوم بعمل يؤدِّيه الناس جميعًا، بخلاف النافلة.

ومن هنا أصبح الصوم تربية للمجتمع، حتى المجتمعات التي يغلب عليها الضعف والتهاون، تجد آثار رمضان ظاهرة عليها، ويندر في الناس مَن يجاهر بالفطر ويعلنه.

خامسًا: الصيام يربِّي العبدَ على التطلُّع إلى الدَّار الآخرة؛ فالصائم يترك ما يحب ويشتهي تطلعًا إلى ما عند ربه من الأجر والثواب، فمقياس ربحه

وخسارته مقياس أخروي، وفي ذلك أعظم الدروس لتوطين قلب الصائم على الإيمان بالغيب والآخرة، والتعلُّق بها، والترفُّع عن عاجل ملاذِّ الدنيا التي تقود إلى التثاقل والإخلاد إلى الأرض. هذا مع وافر الخير المعجَّل له في الدنيا، ونعيم حياته بصحة البدن، وفرح القلب بالطاعة، وانشراح الصدر بالإيمان.

وأصحاب المقاييس المادية لا يرون في الصوم أكثر من حرمان من لذة الأكل والشرب والوقاع، والتي بها سعادة النفس وتلبية الحاجات الجسمية.

سادسًا: الصوم يربِّي الإنسان على قوة الإرادة، وعلى الصبر؛ فمن أسماء الصوم: الصبر، ولذلك سُمِّي شهر رمضان: شهر الصبر؛ وفي قول الله جل جلاله: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ٤٥﴾ [البقرة: 45] ، قال بعض المفسرين: المقصود بالصبر هنا: الصوم. أي: استعينوا بالصوم والصلاة؛ وذلك لأن الصوم يربِّي مَلكة الصبر وقوة الإرادة، وكثير من الناس يحتاجون دائمًا إلى تقوية إرادتهم.

والنجاح يفتقر إلى ثلاثة أشياء:

١ -الرغبة: فكل إنسان يود أن يكون قويًّا، وأن يكون ناجحًا، وموفَّقًا، وغنيًّا.

٢ -القوة أو القدرة: فأكثر الناس يملك عقلًا، وجسمًا، وإمكانيات لو وظفها لنجح.

٣ -الإرادة: فتقوية الإرادة من أعظم أسباب النجاح للإنسان في دنياه وأخراه، وتحقيق آماله وتطلعاته، وتوظيف قدراته فيما ينفعه عاجلًا وآجلًا.

والصوم يقوِّي ذلك كله ويوظِّفه، ويربِّي الإنسان على تحمُّل المشاق في أمور الحياة كلها، وهو شيء لا يوجد إلا عند الناجحين الذين استطاعوا أن يحقِّقوا هذه الرغبات من خلال استخدام ما وهبهم ربهم.

تَعَزَّ فإن الصبرَ بالحُرِّ أجملُ

وليس على ريبِ الزمان مُعوَّلُ

فإن تكن الأيامُ فينا تبدَّلت

بنُعمَى وبُؤسَي والحوادث تفعلُ

فما ليَّنت منا قناةً صليبةً

ولا ذلَّلتنا للتي ليس يجمُلُ

ولكن رَحلْناها نفوسًا كريمةً

تُحمَّل ما لا يُستطاع فتحمِلُ

فالصبر ضرورة دينية لصلاح العبد، وضرورة حياتية لنجاحه، وضرورة اجتماعية لإقامة علاقة معتدلة ودائمة مع الآخرين، وهو أعظم خُلُق يحتاجه المرء لتحقيق آماله وتطلعاته، ثم لديمومة النجاح، ثم لتحمُّل الإخفاقات التي لا تخلو منها الحياة، ويحتاجه مع زوجه وولده، وحتى مع نفسه التي لا تطاوعه في أحيان كثيرة، ومع أصدقائه وقرابته، ومع خصومه وأعدائه، ولذا قال سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: 34].

سابعًا: الصوم يقمع الشهوة؛ ولهذا جاء في الحديث، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا معشرَ الشباب، مَن استطاع منكمُ الباءةَ فليتزوجْ، ومَن لم يستطعْ فعليه بالصوم؛ فإنه له وِجَاءٌ». متفق عليه.

فأشار النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى أن الصوم يمنع من اندفاع الإنسان إلى الشهوات.

وربط بعض أهل العلم هذا الحديث بالحديث الآخر المتفق عليه من حديث صفية رضي الله عنها، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطانَ يجري من ابن آدمَ مَجْرَى الدَّمِ».

وأما الزيادة: «فضيِّقوا مجارِيهِ بالجوعِ». أو: «بالصوم». فهذه زيادة منكرة، ليست في شيء من كتب الحديث- فيما أعلم- وإنما ذكرها العجلوني في «كشف الخفاء»، ونُقِل عن العراقي أنها من كلام بعض الصوفية، وليست حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فالصوم يقمع الشهوة، بأنه يضيِّق المجاري، كما يقول بعض العلماء، أو أنَّ تلبُّس الإنسان بالعبادة التي تستغرق النهار كله؛ تُحْدِث ذلك الأثر المعنوي، ولا مانع من إرادة المعنيين معًا، والله أعلم.

ويواكب هذا ما تيسر من الصلاة والقيام والذكر في ليالي رمضان خاصة، فهذا يمنعه من الاندفاع والنظر الحرام، ويمنعه من الوقوع فيما حرم الله.

ثامنًا: الآثار النفسية والبدنية المترتبة عليه؛ وهي كثيرة، ويتكلَّم بعض الأطباء عن الصيام وأثره على البدن، وتنظيم الطعام، وأنه نوع من الحِمْيَة، وقد يوصي به بعض أهل الطب.

ولا شك أن هذه من الفوائد التابعة، كما يقال مثل هذا عن الصلاة، أو الحج، أو غيرها.

لكن العبد إنما يمتثل هذه الأوامر تعبُّدًا لله وطاعة، حتى ولو لم يكن لها فائدة على بدنه؛ والله تعالى لم يأمرنا بما فيه ضرر إلا إذا كان يقابله نفع

أعظم منه، فقاعدة الشريعة أنها جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، ودفع المفاسد وتعطيلها أو تقليلها.

وصلاح قلب الإنسان وصفاؤه وتجرُّده هو أساس كل خير، وسرُّ كل نهوض أو تغيير، وعليه تدور سائر الأحوال، فالإصلاح السياسي والعلمي والإداري والاقتصادي، يفتقر إلى النيات الصادقة والقلوب السليمة، ومتى سلم الناسُ من تَقَصُّد السوء وإرادته، وتوجَّهوا إلى الخير يطلبونه ويبحثون عنه؛ فإن الله معهم بالتوفيق والسداد والإسعاد والنجاح، كما قال سبحانه: ﴿ إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: 35]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

وعلى الصائم ألَّا يكون انتقائيًا فيما يفعل ويترك، فالصوم يحبس النفس عن الشهوات المحرَّمة، والكلام الفاسد، ولكنه يمنع أيضًا عن السرقة، وخصوصًا سرقة المال العام، والتحايل على ذلك بشتى الوسائل، والتساهل بزعم أن له فيه حقًّا؛ مما يفضي إلى التربية على الغش والكذب والخداع والاحتيال، وسرقة الوقت العام بالتخلُّف عن الدوام، تحت ذريعة التعب والصيام، أو إهمال المستفيدين والمراجعين وزجرهم، أو سرقة أموال الناس، تحت مسمَّى مساهمات وهمية، أو شركات غير قائمة، أو مضاربات لا حقيقة لها؛ مما يضرُّ بالضعفاء والفقراء والمساكين

وأصحاب الدخول القليلة، ويحيل أحلامهم بالغنى إلى سراب خادع، وغُصَّة لا تُمحى في حلوقهم، ويشوِّه سمعة الفاعل ومَن على شاكلته، فمدرسة الصوم هي سلاح جذري شامل لذلك كله.

نسأله جل وتعالى باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أَعْطَى، وإذا دُعي به أجاب، أن يثبِّت قلوبنا على دينه، وأن يصرِّف قلوبنا على طاعته، وأن يُلهمنا رشدنا، ويقينا شُحَّ أنفسنا.

الحلقة الثامنة

الصيام والصحة

حين يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 184] ، فالخيرية هنا تشمل الدنيا والآخرة، وقد أثبت الطب الحديث بعد دراسات عديدة وأبحاث دقيقة على جسم الإنسان ووظائفه الفسيولوجية، أن الصيام حالة ضرورية، يجب على الجسم أن يمارسها، حتى يمكِّنه من أداء وظائفه الحيوية بكفاءة، وأنه ضروري لصحة الإنسان كالأكل والشرب تمامًا، وكالحركة والنوم، وهو يقوم بعملية الهدم التي يتخلَّص فيها الجسم من الخلايا القديمة والخلايا الزائدة عن حاجته.

وفي الحديث: «الصيام جُنة». فهو جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن؛ مَنافعُه تفوت الإحصاء، وله تأثير عجيب في حفظ الصحَّة، وإذابةِ الفضلات، وحبس النفس عن تناول مؤذياتها، ولاسيما إذا كان باعتدال وقصد.

ثم إنَّ فيه من إراحة الأجهزة والأعضاء ما يحفظ عليها قواها.

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا؛ عظم انتفاع قلبه وبدنه به، وحبس عنه المواد

الغريبة الفاسدة التي هو مستعِدٌّ لها، وأزال الموادَّ الرديئةَ الحاصلةَ بحسب كماله ونقصانه، وترك الطعام والشراب مقصود، وهو معنى الصوم الشرعي، وهو يحقِّق مصلحة صحية عظيمة.

والمقصود الآخر: اجتماعُ القلب والهمِّ على الله تعالى، وتوفيرُ قُوى النفس على محابِّهِ وطاعته.

ومع أن الصوم عبادة جزاؤها الأجر والثواب في الآخرة، ورضوان المولى جل وتعالى، والطمأنينة في الدنيا بطاعة الله وذكره، وسرور القلب بإنجاز العمل؛ إلا أن من بديع الحكمة والرحمة أن يتعبدنا ربنا بما فيه خيرنا في العاجل والآجل، فتكون العبادات سببًا في العافية وصحة البدن ونظافته، ومن فوائد الصوم القيِّمة للجسد والروح والنفس ما يلي:

1- الصوم راحة للجسم، يمكِّنه من إصلاح أعطابه ومراجعة ذاته.

2- الصوم يُوقِف عملية امتصاص المواد المتبقية في الأمعاء، ويعمل على طرحها، والتي يمكن أن يؤَدِّي طول مكثها إلى تحولها لنفايات سامة، كما أنه الوسيلة الوحيدة الفعالة التي تسمح بطرد السموم المتراكمة في البدن والآتية من المحيط الملوَّث.

3- بفضل الصوم تستعيد أجهزة الإطراح والإفراغ نشاطَها وقوتَها، ويتحسَّن أداؤها الوظيفي في تنقية الجسم، مما يؤدِّي إلى ضبط الثوابت الحيوية في الدم وسوائل البدن. ولذا نرى الإجماعَ الطبي على ضرورة إجراء الفحوص الدموية على الريق، أي يكون المفحوص صائمًا، فإذا حصل أن عاملًا من هذه الثوابت في غير مستواه، فهو دليل على وجود خلل ما.

4- بالصوم يستطيع البدن تحليل المواد الزائدة والترسبات المختلفة داخل الأنسجة المريضة.

5- الصوم أداة يمكن أن تعيد الشباب والحيوية إلى الخلايا والأنسجة المختلفة في البدن. ولقد أكَّدت أبحاثٌ علميةٌ أن الصوم سبب في إعادة الشباب الحقيقي للجسد.

6- الصوم يضمن الحفاظ على الطاقة الجسدية، ويعمل على ترشيد توزيعها حسب حاجة الجسم.

7- الصوم يُحسِّنُ وظيفةَ الهضم، ويسهِّل الامتصاص، ويسمح بتصحيح فرط التغذية.

8- الصوم يفتِّح الذهنَ ويقوِّي الإدراك، وقديمًا قيل: «البِطْنةُ تذهب الفِطْنةَ.«

9- للصوم تأثيرات مهمة على الجلد، تمامًا كما يفعل مرهم التجميل، يُجَمِّل وينظِّف الجلد.

10- الصوم علاج شافٍ، هو الأكثر فعالية والأقل خطرًا لكثير من أمراض العصر المتنامية؛ فهو يخفِّف العبء عن جهاز الدوران، وتهبط نسبة الدسم وحمض البول في الدم أثناء الصيام، فيقي البدين من الإصابة بتصلب الشرايين، وداء النقرس، وغيرها من أمراض التغذية والدوران وآفات القلب.

وهكذا، وبعد أن ينظِّف الجسم من سمومه، وتأخذ أجهزته الراحة الكاملة بسبب الصوم؛ يتفرغ إلى لأم جروحه وإصلاح ما تلف من أنسجته، وتنظيم الخلل الحاصل في وظائفها؛ إذ يسترجع الجسد أنفاسه ويستجمع قواه لمواجهة الطوارئ بفضل الراحة والاستجمام اللذين أُتِيحا له أثناء الصوم.

وهذه عشر فوائد للجوع المنضبط بالصوم الشرعي:

الأولى: صفاء القلب، وإيقاد القَرِيحة، وإنفاذ البصيرة؛ فإن الشبع يُورِث البَلَادة، ويعمي القلب، فيثقل القلب بسببه عن الجريان في الأفكار وعن سرعة الإدراك.

الثانية: رقة القلب وصفاؤه الذي به يتهيَّأ لإدراك لذة المثابرة والتأثُّر بالذكر، فكم من ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب، ولكن القلب

لا يلتذُّ به ولا يتأثر، وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثُّره بالذكر وتلذُّذه بالمناجاة، وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

الثالثة: الانكسار والذل، وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله تعالى؛ فإن الجوع يكشف للإنسان ضعفه وعجزه ومحدودية قواه، ولا تنكسر النفس ولا تذل بشيء كما تذل بالجوع.

الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه، ولا ينسى أهل البلاء؛ فإن الشبعانَ ينسى الجائعَ، وينسى الجوعَ.

الخامسة: كسرُ شهوات المعاصي، والاستيلاءُ على النفس الأمَّارة بالسوء؛ فإن منشأَ المعاصي الشهواتُ، ومادة الشهوات الأطعمة، فتقليلها يضعف الشهوة، وإنما السعادة كلُّها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكَه نفسُه.

ولا شيء يدمِّر قوى البشر اليوم مثل الإدمان السلبي على العادات الضارة، فالإدمان دافع كافٍّ ليفعل الإنسان ما اعتاد، حتى لو كان فيه عطبه وهلاكه.

السادسة: دفع الكسل والخمول؛ فإنَّ مَن شبع واكتظ، أُتْخِم وكثر نومه، ولأجل ذلك قال بعض السلف: «لا تأكلوا كثيرًا، فتشربوا كثيرًا، فترقدوا كثيرًا، فتخسروا كثيرًا.«

وفي كثرة النوم والخمول: ضياع العمر، وبلادة الطبع، وقساوة القلب، والعمر أنفس الجواهر، وهو رأس مال العبد.

السابعة: تيسير المواظبة على العبادة؛ فإنَّ الأكل بنَهَمٍ يمنع من كثرة العبادات؛ لأنه يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل، وزمان للاسترخاء والهضم، وربما يحتاج إلى زمان في شراء الطعام ومئونته وغير ذلك.

الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن، ودفع الأمراض التي سببها كثرة الأكل، والمرض يعوق عن العبادات، ويشوِّش القلب، ويمنع من الذكر والفكر، وينغِّص العيش، ويُحْوِج إلى الدواء والطبيب.

التاسعة: خفة المئونة والاقتصاد في النفقة؛ وقد أصبح الناس يتفنَّون اليوم في تنويع المطاعم والمشارب، ويبالغون فيها مما يأكلون وما لا يأكلون.

وهذا يقود إلى الفائدة العاشرة، وهي: أن يتمكَّن من الإيثار والتصدُّق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين، فينعم يوم القيامة بفضل صدقته.

نسأل الله أن يصلح قلوبنا ويطهر ألسنتنا ويستعمل جوارحنا في طاعته ويعيننا على الصيام والقيام في شهر رمضان..

الحلقة التاسعة

رمضان شهر الجود

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: 77] ، وقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

وهذه الآية هي أحد أصول الطب الوقائي في الأمر بالعناية بالأكل والشرب الصحي المعتدل الملائم للجسم، وتجنُّب الضار منها، بما في ذلك إدمان الوجبات السريعة المطهية بالدهون المؤيَّنة؛ مما سبَّب انتشار السمنة وشيوع أمراض أخرى لدى الشباب.

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من سيِّء الأسقام، ويسأل اللهَ العافية، فنعوذ بالله من جَهْد البلاء، ودَرَك الشقاء، وسوء القضاء، وعُضال الداء، وشماتة الأعداء.

الجودُ والكرمُ من الأخلاق العظيمة التي مَن تحلَّى بها أحبَّه الله وأحبَّه الناس، وهي دليلُ المروءةِ والرجولة والإنسانية الصادقة. كرم النفس: بالمال والجاه، وبالعلم والوقت، وبالنفس والنفيس.

والجود عشر مراتب:

- أحدها: الجود بالنفس، وهو أعلى مراتبه، كما قال الشاعر:

يجُودُ بالنَّفس إن ضَنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنَّفْس أَقْصى غاية الجودِ

ومعناه: الإقدام في ميدان الجهاد الشرعي، وطلبه الشهادة، كما قيل:

يا نفسُ مالَكِ تَكرهين الجنَّةْ

أقسمتُ بالله لتنزِلنَّهْ

طائعةً أو لتُكرَهِنَّهْ

لطالما قد كنتِ مُطمئنَّةْ

هل أنتِ إلا نطفةٌ في شَنَّةْ

قد أجلَب الناسُ وشدُّوا الرَّنَّةْ

- الثانية: الجود بالرياسة، فيحمل الجَوَاد جودُه على امتهان رياسته، والجود بها، والإيثار في قضاء حاجات الملتمس، أو يتخلَّى عنها؛ حفظًا لأمن الناس ووحدتهم ومصالحهم وحقن دمائهم.

- الثالثة: الجود بالمال، وقد تعب في جمعه وحفظه وصيانته، ثم يبذل منه للسائل والمحروم والفقير والمسكين وابن السبيل والعافي الذي لم يتعب في

جمعه، وهي درجة عظيمة من السمو ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

- الرابعة: الجود بالعلم وبذله، وهو أفضل من الجود بالمال؛ من وجه أن العلم أشرف من المال، على أن المال يذهب والعلم لا يذهب. ومن جود العلم أن يُبذَل لمَن يسأل عنه ويُطرَح عليه طرحًا، وأن يكون الجواب شافيًا، وليس بقدر ما تُدفع به الضرورة.

- الخامسة: الجود بالنفع بالجاه؛ كالشفاعة والمشي إلى ذي سلطان وغيره في قضاء حاجة أو إسقاط دين أو مطالبته أو إنجاح مقصد.

وإذا امرُؤٌ أَسْدَى إليك صَنِيعةً من جاهِهِ فكأنَّها مِن مالِهِ

- السادسة: الجود بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ سُلَامَى من الناس عليه صدقةٌ، كلَّ يوم تطلعُ فيه الشمسُ؛ يعدلُ بين الاثنين صدقةٌ، ويُعينُ الرجلَ على دابته، فيحملُ عليها أو يرفعُ عليها متاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ، وكلُّ خُطوةٍ يخطُوها إلى الصلاة صدقةٌ، ويميط الأَذَى عن الطريق صدقةٌ». متفق عليه. فيجود براحته ورفاهيته وإجمام نفسه في تحصيل مصالح الآخرين.

- السابعة: الجود بالعِرض، كما رُوي بسند فيه مقال، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «أيعجزُ أحدُكم أن يكونَ مثل أبي ضَمْضَمٍ؟». قالوا: ومَن أبو ضَمْضَمٍ؟ قال: «رجلٌ فيمَن كان قبلكم، قال: عرضي لمَن شتمني». وفي هذا الجود من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلُّص من معاداة الخلق ما فيه.

هَنيئًا مَريئًا غيرَ داءٍ مُخامرٍ لِعَزَّةَ مِن أعراضِنا ما استحلَّتِ

- الثامنة: الجود بالصبر والاحتمال والإغضاء، وهو أنفع لصاحبه من الجود بالمال، ولا يقدر عليه إلا أصحاب النفوس الكبار؛ فمَن صعُب عليه الجود بماله، فعليه بهذا الجود؛ فإنه يجتني ثمرة عواقبه الحميدة في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45]. وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

- التاسعة: الجود بالخُلُق والبشر والبَسْطَة، وهو الذي يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، وفيه من المنافع والمسارِّ وأنواع المصالح ما فيه، والعبد لا يمكنه أن يسعَ الناسَ بماله، ويمكنه أن يسعهم بخُلُقه واحتماله.

أُضاحِكُ ضَيفي قبلَ إنزالِ رَحْلِهِ ويُخْصِبُ عندي والمَحَلُّ جَدِيبُ

وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يَكْثُرَ القِرَى ولكنَّما وجهُ الكريمِ خَصيبُ

- العاشرة: الجود بتركه ما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه ولا يستشرف له، وهذا الذي قال عبد الله بن المبارك أنه أفضل من سخاء النفس بالبذل.

والجود من صفات الله العليا، والجَوَاد من أسمائه الحسنى، ولهذا قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إن اللهَ كريمٌ يحبُّ الكرماءَ، جَوَادٌ يحبُّ الجُودَ، يحبُّ معالي الأخلاقَ، ويكرهُ سَفْسَافَهَا»...

وللجود في رمضان خاصة فوائد:

- منها: شرف الزمان، ومضاعفة أجر العامل فيه.

- ومنها: إعانة الصائمين والقائمين والذاكرين على طاعتهم.

وعن زيد بن خالد الجُهني رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن فطَّر صائمًا، كان له مثلُ أجره، غيرَ أنه لا ينقصُ من أجر الصائم شيئًا».

- ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة من موجبات الجنة، كما جاء في حديث علي رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إن في الجنة غُرفًا، تُرى ظهورُها من بطونها، وبطونُها من ظهورِها». فقام أعرابي

فقال: لِمَن هي يا رسولَ الله؟ قال: «لِمَن أطابَ الكلامَ، وأطعَم الطعامَ، وأدامَ الصيامَ، وصلَّى لله بالليل والناسُ نيامٌ».

- ومنها: أن الجمع بين الصيام والصدقة أبلغ في تكفير الخطايا، والمباعدة عنها، وخصوصًا إذا ضُمَّ إلى ذلك قيامُ الليل.

فالصيام جُنَّة، وفي حديث معاذ رضي الله عنه: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ تطفئ الخطيئَةَ، كما يطفئُ الماءُ النارَ، وصلاةُ الرجل من جوف الليل». ثم تلا: «﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ..﴾ [السجدة: 16] ». حتى بلغ: «﴿..بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16-17] ».

وفي الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم عن عَدِي بن حاتم رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اتقوا النار، ولو بشقِّ تمرةٍ».

- ومنها: أن الصدقة تجبر ما في الصوم من خلل؛ فالصيام يقع فيه الخلل أو النقص.

كان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يصومُ ولا يفطرُ إلا مع المساكينِ، فإذا منعه أهلُه عنهم لم يتعشَّ تلك الليلةَ، وكان يتصدَّق بالسُّكَّر، ويقول: «سمعتُ

الله يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92] ، واللهُ يعلمُ أني أحبُّ السكر».

قال الشافعي: «أحبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان؛ اقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم، ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم، ولتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم». وكذا قال القاضي أبو يعلى وغيره.

الحلقة العاشرة

مع الرسول (ﷺ) في الصوم

كان هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الصوم أحسن الهدي وأكمله وأصحه وأسهله، وقد كان يكثر من العبادات في رمضان، ويجتهد ما لا يجتهده في غيره؛ وكان يكثر من الصدقة والإحسان، وتلاوة القرآن، والصلاة، والذكر، والاعتكاف وغيره.

وكان لرمضان عنده مَزِيَّة لا يخص بها غيره، حتى إنه كان يواصل فيه ليوفِّر ساعات ليله ونهاره للعبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال؛ معلِّلًا ذلك بأنَّه ليس كهيئتهم، وأنَّه صلى الله عليه وسلم يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه.

لها أَحادِيثُ مِن ذِكْراكَ تَشْغَلُها عن الشراب وتلهيها عن الزَّادِ

لها بوجهك نُورٌ تَسْتَضِيءُ بهِ ومن حديثك في أَعْقابها حادِي

إذا شكتْ من كلالِ السيرِ أَوْعدها روحُ القدومِ فتحيا عند ميعادِ

وكان صلى الله عليه وسلم يعجِّل الفطرَ ويرغِّب فيه، ويتسحَّر ويؤخِّره ويحضُّ عليه. وكان من هديه الفطر على الرُّطب، فإن لم يجد فعلى التمر،

فإن لم يجد فعلى الماء، وهذا مراعاة للطبيعة بدخول الحلو على خلو في المعدة، وانتفاع الكبد بعد الصوم بالماء فيه من الإعجاز ما لا يخفى، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يفطر على رُطبات قبل أن يصلِّي، فإن لم تكن رُطبات فعلى تمرات، فإن لم تكن حَسَا حَسَوَات من ماء».

وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أفطر قال: «ذهب الظَّمأُ، وابتلَّت العروق، وثبت الأَجر إِنْ شاء الله».

وقد صام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأفطر في سفره، وخيَّرَ أصحابَه بين الفطر والصوم، وكان يأمرهم بالفطر أحيانًا إذا دنوا من قتال عدوهم.

وقد كانت أعظم غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وأجلها في رمضان، وهي غزوة بدر والفتح، قال عُمر بنُ الخطاب رضي الله عنه: «غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان غزوتين؛ يوم بدر، والفتح، فأَفطرنا فيهما».

وأدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلم الفجرُ يومًا في رمضانَ وهو جنبٌ من أهله، فاغتسل بعد الفجر وصام، ففي «صحيح مسلم» عن سليمان بن يسار، أنه سأل أمَّ سلمةَ رضي الله عنها عن الرجل يُصبح جنبًا، أيصومُ؟

قالت: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُصبحُ جنبًا من غير احتلام، ثم يصومُ». وفي «الصحيحين» عن أم سلمة وعائشة رضي الله عنهما مثله.

ورحمة بأمته صلى الله عليه وسلم كان من هديه إسقاط التبعة عمَّن أكل أو شرب ناسيًا؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن نسي وهو صائمٌ، فأكلَ أو شربَ، فليتمَّ صومَه؛ فإنما أطعمه اللهُ وسقاه».

ولم يصح عنه شيء في النهي عن الكحل للصائم، وكان يستاك وهو صائم، ولا فرق في ذلك بين أول النهار وآخره.

وكان صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يقالَ: لا يفطرُ. ويفطرُ حتى يقالَ: لا يصومُ. ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصومُ حتى نقولَ: لا يفطرُ. ويفطرُ حتى نقولَ: لا يصومُ. فما رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم استكمَل صيامَ شهرٍ إلا رمضانَ، وما رأيتُه أكثرَ صيامًا منه في شعبانَ».

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أول الأمر يصوم يوم عاشوراء قبل أن يُفرضَ عليه صيامُ رمضانَ، وذلك حين قدم المدينة، فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فقال لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟». قالوا: هذا يوم عظيم، أنجى الله فيه موسى

وقومه، وأغرَق فرعونَ وقومه؛ فصامه موسى شكرًا؛ فنحن نصومه. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «فنحن أحق وأَوْلى بموسى منكم». فصامه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأمر بصيامه.

وفي «الصحيحين» من حديث الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذٍ رضي الله عنها قالت: أرسَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غداةَ عاشوراءَ إلى قُرَى الأنصار التي حول المدينة: «مَن كان أصبَح صائمًا، فليتمَّ صومه، ومَن كان أصبَح مفطرًا، فليتمَّ بقية يومه». أي يمسك بقية يومه. فكنا بعد ذلك نصومُهُ، ونُصَوِّمُ صبيانَنَا الصغارَ منهم، ونذهبُ إلى المسجد، فنجعلُ لهم اللُّعبةَ من العِهْنِ -أي: الصوف- فإذا بكى أحدُهم على الطعام أعطيناه ذاك، حتى يكون عند الإفطار.

فلما فُرِضَ رمضان كان صوم عاشوراء سُنَّة؛ مَن شاء صامه، ومَن شاء تركه. وكان صلى الله عليه وسلم إذا كان بعرفةَ أفطرَ؛ ففي «الصحيحين» عن أُمِّ الفَضْلِ بنت الحارث رضي الله عنها، أن ناسًا اختلفوا عندها يومَ عرفةَ في صوم النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال بعضُهم: هو صائمٌ. وقال بعضُهم: ليس بصائمٍ. فأرسلتُ إليه بقدحِ لبنٍ وهو واقفٌ على بعيره، فشربه.

وكان من سماحته ولين جانبه مع أهله وتعامله بتلقائية تامة، أنه دخل عليهم ذات يوم فقال: «هل عندكم شيءٌ؟». قالوا: لا. قال: «فإنِّي إذًا صائمٌ». ثم أَتاهم يومًا آخر، فقالوا: يا رسولَ الله، أُهْدِي لنا حَيْسٌ. فقال: «أَرينيه، فلقد أَصبحتُ صائمًا». فأَكلَ.

وكان يكره تخصيص يوم الجمعة بصوم، وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم ذلك بالفعل والقول، ففي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يصومنَّ أحدُكم يومَ الجمعة، إلا يومًا قبله أو بعده».

وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف في رمضان العشر الأواخر منه حتى توفَّاه الله، وتركه مرة فقضاه في شوال. وكان يعتكف كل سنة عشرة أيام، فلما كان في العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا. وكان يعارضه جبريل بالقرآن كل سنة مرة، فلما كان ذلك العام عارضه به مرتين. وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده، وكان لا يدخل بيته في حال اعتكافه إلا لحاجة الإنسان. ولم يباشر امرأة من نسائه وهو معتكِف، لا بقبلة ولا غيرها، وكان إذا اعتكف طُرِح له فراشه ووُضع له سريره في معتكفه.

وخير الهَدي هَدي محمد صلى الله عليه وسلم، فعلى الصائم أن يتعلَّم الهَدي النبوي، ويسعى وسعه في التأسِّي به، في قوله وفعله وقراءته وسمته

وأخلاقه، فمَن اقتدى به، فخَلِيقٌ أن يُحشر معه، وأن يَرِدَ حوضه، وأن يكون مشمولًا بشفاعته يوم العرض الأكبر.

رزقنا اللهُ اتِّباعه ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا، علمًا وعملًا، وجعلنا من حزبه وأوليائه، وما أولياؤه إلا المتقون.

الحلقة الحادية عشر

الأحاديث الضعيفة والموضوعة في الصوم

جاء في «مقدمة صحيح مسلم» عن عُبيدِ الله بنِ عُمرَ القواريريِّ قال: سمعتُ حمادَ بنَ زيد يقولُ لرجلٍ بعدما جلس مَهْديُّ بنُ هلالٍ للتحديث بأيام: ما هذه العينُ المالحةُ التي نبعتْ قِبَلَكُم؟! قال: نعم يا أبا إسماعيلَ! والعينُ المالحة كناية عن ضعف مَهْدي بن هلال، وجَرْحِه في الحديث.

إنَّ الحديث عن رسول الله شديد، وقد ورد في الحديث المتواتر عن ثمانين صحابيًّا أنه صلى الله عليه وسلم قال: «مَن كذب عليَّ متعمِّدًا، فليتبوأْ مقعدَه من النار».

وهناك أحاديث تدور على الألسنة، وهي إما ضعيفة أو موضوعة، وينبغي أن يتنبَّه الصائم لها، ومنها:

1- حديث: « صومُوا تصحُّوا ».

حديث ضعيف، قال العراقيُّ في «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين»: «رواه الطبراني في «الأوسط»، وأبو نعيم في «الطب النبوي»، من حديث أبي هريرة بسند ضعيف». وقال الشوكاني في «الفوائد المجموعة»: «قال الصغانيُّ: موضوع. وقال في «المختصر»: «ضعيف». ومعناه صحيح؛ فالصوم عافية للروح والبدن كما سلف.

2- عن سلمانَ رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبانَ، فقال: «أيُّها الناسُ، قد أظلَّكم شهرٌ عظيمٌ مباركٌ، شهرٌ فيه ليلةٌ خيرٌ من ألف شهر، شهرٌ جعَل اللهُ صيامَه فريضةً، وقيامَ ليله تطوعًا، مَن تقرَّبَ فيه بخَصلة من الخير، كان كمَن أدَّى فريضةً فيما سواه، ومَن أدَّى فيه فريضةً كان كمَن أدَّى سبعينَ فريضةً فيما سواه، وهو شهرُ الصبر، والصبرُ ثوابُه الجنةُ، وشهرُ المواساة، وشهرٌ يزاد فيه رزقُ المؤمن، مَن فَطَّرَ فيه صائمًا، كان مغفرةً لذنوبِه، وعتقَ رقبتِه من النارِ، وكان له مثلُ أجرِه، من غير أن يُنتقصَ من أجره شيءٌ». قالوا: ليس كلُّنا نجدُ ما يُفطِّر الصائمَ؟ فقال: «يُعطِي اللهُ هذا الثوابَ مَن

فَطَّرَ صائمًا على تمرةٍ، أو شربةِ ماءٍ، أو مَذْقَةِ لبنٍ، و هو شهرٌ أَوَّلُه رحمةٌ، وأوسطُه مغفرةٌ، وآخرُه عتقٌ من النارِ، مَن خفَّفَ عن مملوكِه، غفَر اللهُ له وأعتَقه من النارِ، واستكثِروا فيه من أربعِ خِصالٍ: خَصلتين تُرضون بهما ربَّكم، وخَصلتين لا غنى بكم عنهما؛ فأمَّا الخصلتان اللتان تُرضون بهما ربَّكم: فشهادةُ أن لا إله إلا الله، وتستغفرونه، وأما اللتان لا غنى بكم عنهما، فتسألونَ اللهَ الجنةَ وتعوذونَ به من النارِ، ومَن أشبَع فيه صائمًا سقاه اللهُ من حوضي شربةً لا يظمأُ حتى يدخلَ الجنةَ». أخرجه ابن خزيمة، وقال: «إن صح الخبر». وفيه: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، وقال الحافظ ابن حجر: «حديث ضعيف».

3- حديث: «الصائمُ في عبادة، ما لم يَغْتَبْ«

أخرجه ابن عدي في «الكامل»، وفيه: عبد الرحيم بن هارون: قال أبو حاتم: «مجهول». وكذَّبه الدارقطني. وقال الحافظ في «التقريب»: «ضعيف». ورجَّح الدارقطني وغيره كونه من قول أبي العالية الرِّياحي، غير مرفوع.

4- حديث: « إن هاتين صامتَا عمَّا أحلَّ اللهُ لهما، وأفطرتَا على ما حرَّم اللهُ عليهما، جلست إحداهما إلى الأخرى، فجعلتا يأكلان لحومَ

الناس». رواه أحمد عن رجل عن عُبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن امرأتين صامتَا، وأن رجلًا قال: يا رسولَ الله، إن هاهنا امرأتين قد صامتَا، وإنهما قد كادتا أن تموتَا من العطش. فأَعْرَض عنه أو سكت، ثم عادَ، وأُراهُ قال: بالهاجرة. قال: يا نبيَّ الله، إنهما والله قد ماتتا أو كادتا أن تموتا. قال: «ادْعُهُمَا». قال: فجاءَتا، قال: فجِيءَ بقدح أو عُسٍّ، فقال لإحداهما: «قِيئِي». فقاءَتْ قَيْحًا أو دمًا وصَدِيدًا ولحمًا، حتى قاءَتْ نصفَ القدح، ثم قال للأخرى: «قِيئِي». فقاءَتْ من قَيْحٍ ودم وصَدِيدٍ ولحم عَبِيطٍ وغيره، حتى ملَأَتِ القدحَ، ثم قال... فذكره. وسنده ضعيف بسبب الرجل الذي لم يُسمَّ.

وفي الباب عن أنس رضي الله عنه عند الطيالسي، و فيه الرَّبيع بن صَبِيح: ضعيف، ويزيد الرقاشي: متروك. والصحيح أن الغيبة مع تحريمها المجمع عليه لا تفطر الصائم.

5- حديث: « الصائم في عبادة، وإن كان راقدًا على فراشه».

رواه تَمَّام في «الفوائد» من حديث سلمان بن عامر الضبي رضي الله عنه، وفي إسناده مجاهيل. ورواه الدَّيْلَمي من حديث أنس رضي الله عنه، وفيه:

محمد بن أحمد بن سهل الباهلي: قال ابن عدي: كان ممن يضع ويسرق حديث الضعفاء، ويلزقها على قوم ثقات.

6- حديث: «رمضان بالمدينة، خيرٌ من ألف رمضان فيما سواها من البلدان».

رواه الطبراني، وفيه: عبد الله بن كثير بن جعفر بن أبي كثير الأنصاري الزُّرقي، قال عنه الذهبي في «الميزان»، وأورد له هذا الحديث من منكراته: «لا يُدرى مَن ذا، وهذا باطل، والإسناد مظلم». وأقره الحافظ في «لسان الميزان»، وضعَّفه أيضًا الهيثمي، وله طرق لا يصح منها شيء.

7- حديث : « مَن أدرك رمضانَ، وعليه من رمضانَ شيءٌ لم يقضه، لم يُتقبَّلْ منه، ومَن صام تطوعًا وعليه من رمضانَ شيءٌ لم يقضه، فإنه لا يُتقبَّلُ منه حتى يصومه». أخرجه أحمد، وأبو يعلى، والطبراني في «الأوسط»- مختصرًا- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الطبراني: «تفرد به ابن لهيعة». والحديث ضعيف.

8- حديث : « مَن أفطر يومًا في شهر رمضان في الحضر، فليُهْدِ بدنة، فإن لم يجد، فليُطعم ثلاثين صاعًا من تمر للمساكين».

أخرجه الدارقطني من طريق خالد بن عمرو الحمصي، عن أبيه، عن الحارث بن عَبِيدة الكَلَاعي، عن مقاتل بن سليمان، عن عطاء بن أبي رباح، عن جابر رضي الله عنه. وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وأقره السيوطي في «اللآلئ»، وقال الذهبي في «الميزان»: «هذا حديث باطل». ومقاتل بن سليمان: كذاب، وخالد بن عمرو، قال عنه الذهبي: «تالف، كذبه الفريابي، ووهاه ابن عدي». والحارث بن عَبِيدة: ضعيف.

9- حديث: « أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالإثمد المُرَوَّح عند النوم، وقال: «ليتقه الصائم».

أخرجه أبو داود من طريق عبد الرحمن بن النعمان بن مَعْبَد بن هَوْذَة، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم. وقال أبو داود: قال لي يحيى بن معين: «هو حديث منكر». وأخرجه الدارمي، والبيهقي، بلفظ: «لا

تكتحل بالنهار وأنت صائمٌ، اكتحل ليلًا». وعبد الرحمن بن النعمان: ضعيف، وأبوه النعمان بن معبد: مجهول.

10- حديث : «أول شهر رمضان رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار.»

أخرجه العُقيلي، وابن عدي، من طريق سلَّام بن سليمان بن سَوَّار، عن مسلمة ابن الصلت، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال العقيلي: «لا أصل له من حديث الزهري». وسلَّام: قال ابن عدي: «منكر الحديث». ومسلمة: قال أبو حاتم: «متروك الحديث». وتقدم نحوه ضمن حديث سلمان رضي الله عنه.

11- حديث : « رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي».

ذكره الحافظ ابن حجر في «تبيين العجب بما ورد في فضل رجب» من رواية أبي بكر النَّقَّاش المفسِّر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. قال: «وسنده مُرَكَّب.. والكسائي المذكور في السند لا يدرى مَن هو». وأبو بكر النقاش، من رجال الإسناد: متهم بالكذب.

12- حديث : « إن الله تعالى أوحى إلى الحفظة أن لا يكتبوا على صوَّام عبيدي بعد العصر سيئة».

أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد»، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات». وقال ابن عَرَّاق في «تنزيه الشريعة»: «رواه الخطيب من حديث أنس، ولا يصح؛ فيه إبراهيم بن عبد الله المُخَرِّمِي الدقاق، قال الدارقطني: له أحاديث باطلة هذا منها».

13- حديث : «لا تقولوا: رمضان. فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى، ولكن قولوا: شهر رمضان».

أخرجه ابن عدي، والبيهقي من طريق محمد بن أبى مَعْشَرٍ، عن أبيه أبي مَعْشَرٍ، عن سعيد المَقْبُري، عن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعًا. وحكم عليه ابن الجوزي بالوضع، وضعفه البيهقي، وقال: «وقد قيل: عن أبى مَعْشَرٍ، عن محمد بن كعب من قوله، وهو أشبه». وصوَّب أبو حاتم الرازيُّ وقفه على أبي هريرة رضي الله عنه.

14- حديث : «إذا سَلِمت الجمعةُ سَلِمت الأيامُ، وإذا سَلِم رمضانُ سَلِمت السنةُ».

رواه ابن حبان في «المجروحين»، وابن عدي في «الكامل»، والدارقطني في «الأفراد» من حديث عائشة رضي الله عنها. وفي إسناده: أبو خالد القرشي عبد العزيز بن أبان، وهو متروك الحديث. وقال أبو أحمد الحاكم: «هذا حديث منكر يشبه بالموضوع». وأورده ابن الجوزي وغيره في «الموضوعات».

15- حديث : « مَن أَفْطَرَ يومًا من رمضانَ، من غير رُخصةٍ رخَّصها اللهُ له، لم يَقْضِ عنه صيامُ الدَّهْرِ، وإِنْ صامَهُ».

ذكره البخاري في «صحيحه» معلَّقًا بصيغة التمريض، وأخرجه أحمد، وأصحاب «السنن» من حديث أبي المُطَوِّس، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الحافظ ابن حجر: «فيه ثلاث علل: الاضطراب، والجهل بحال أبي المُطَوِّس، والشك في سماع أبيه من أبي هريرة..». وضعفه: البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، والمنذري، والقرطبي، والذهبي، وغيرهم.

16- حديث : «لو يعلمُ العبادُ ما في رمضانَ، لتمنَّتْ أمَّتي أن يكونَ رمضانُ السَّنَةَ كُلَّهَا».

أخرجه أبو يعلى، وابن خزيمة، والبيهقي، وغيرهم، وأورده ابن الجوزي في «الموضوعات». وفي إسناده: جرير بن أيوب البجلي: متروك الحديث.

17- حديث: « كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دَخَلَ رجبٌ قال: «اللهُمَّ باركْ لنا في رجبٍ وشعبانَ، وبلِّغْنَا رمضانَ».

أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند»، والبزار، والطبراني في «الدعاء»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» من حديث زائدة بن أبي الرُّقاد، عن زياد النُّمَيري، عن أنس رضي الله عنه. وهذا حديث ضعيف؛ تفرد به زائدة بن أبي الرُّقاد، عن زياد النُّميري، وهما ضعيفان، وزائدة قال البخاري: «منكر الحديث». وقال أبو حاتم: «يحدِّث عن زياد النُّميري عن أنس أحاديث مرفوعة منكرة.. ».

18- حديث: «اللهمَّ لك صُمتُ، وعلى رزقك أفطرتُ».

هذا الحديث لا يثبت؛ أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن زُهرة مرسلًا. ورُوي من حديث ابن عباس وأنس رضي الله عنهما مرفوعًا، وإسنادهما ضعيف، وضعفه غير واحد.

إن من حفظ الله لهذا الدين ولسنة سيِّد المرسلين؛ أن قيَّض الجهابذة من أهل العلم لدراسة أسانيد الحديث ومتونها، ومعرفة عللها، وتمييز صحيحها من سقيمها، وتحذير الأمة من تداول ما لا يثبت منها؛ حمايةً للمقام النبوي. وما أكثر العادات الشائعة، والمفهومات الفاسدة، المبنيَّة على نصوص لم تثبت.

الحلقة الثانية عشر:

شهر رمضان والدعاء

الدعاء هو الرغبة إلى الله سبحانه، واستمدادُ المعونةِ منه، في سائر أمور الدنيا والآخرة. وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرُّؤ من الحول والقوَّة، وهو سمةُ العبودية، ومظهر الإيمان، وعنوان اليقين.

وعجيب وجميل أن يذكر الدعاء وسط الكلام عن الصيام وأحكامه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

هذا التفات عن خطاب المؤمنين كافة بأحكام الصيام إلى خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يذكِّرهم ويعلِّمهم ما يراعونه في هذه العبادة وغيرها من الطاعة والإخلاص، والتوجُّه إليه وحده بالدعاء الذي يُعدُّهم للهُدى والرَّشاد.

ومن أسرار الإعجاز في الآية الكريمة، أنه تعالى لم يقل: (فقل لهم: إني قريب). بل قال لكمال قربه منه: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾. فخاطبهم مباشرة بجواب

سؤالهم، ثم فسَّر قربه منهم بأنه يجيب الداعي، وهذا من القرب، وهو مقصود السؤال؛ لأنهم قالوا: «أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أم بعيدٌ فنناديه».

ومن قربه أنه يعلم السر وأخفى، كما قال: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16] ، فهو سبحانه قريب بالإجابة وبالإثابة وبالعلم وبالسلطان.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَن لم يسألِ اللهَ يغضبْ عليه. وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أفضلُ العبادة الدعاءُ. وعن النعمان بن بَشِير رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاءُ هو العبادةُ؛ قال ربُّكم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] ».

وقال صلى الله عليه وسلم: إن أبخلَ الناس مَن بَخِلَ بالسلام، وأعجزَ الناس مَن عَجَزَ عن الدعاء.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «إن الله حَيِيٌّ كريمٌ، يَسْتَحْيِي إذا رَفَع الرجلُ إليه يديه أن يَرُدَّهما صِفْرًا خائبتين». وقد رُوي مرفوعًا، والموقوف أشبه.

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ما على الأرض مسلمٌ يدعو اللهَ بدعوة، إلا آتاه اللهُ إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها؛ ما لم يَدْعُ بمأثم، أو قطيعة رحم».

وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني».

وللدعاء آداب، على المسلم أن يلتزمها ويتحرَّاها؛ لأن ذلك من أسباب الإجابة:

• الأول: أن يتحيَّن الأوقات الفاضلة، مثل:

1- وقت السحر: فعن عَمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه، أنه سمع النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعتَ أن تكونَ ممن يذكرُ اللهَ في تلك الساعة، فَكُنْ».

وعن جابر رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إن من الليل ساعة، لا يوافقها عبدٌ مسلمٌ، يسألُ اللهَ خيرًا إلا أعطاه». أخرجه مسلم، وزاد أحمد: «وهي كلَّ ليلةٍ».

2- في السجود: فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «وأما السجود، فاجتهدوا في الدعاء؛ فقَمِنٌ -أي جديرٌ- أن يستجابَ لكم».

3- عند الأذان: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إذا نادى المنادِي فُتحت أبوابُ السماء، واستُجيب الدُّعاء».

4- بين الأذان والإقامة: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا يُرَدُّ الدعاءُ بين الأذان والإقامة».

وفي لفظ: «الدعاء بين الأذان والإقامة مستجابٌ؛ فادعوا».

5- عند لقاء العدو: فعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ثنتان لا تُردَّان -أو قلَّما تُردَّان-: الدعاء عند النداء، وعند البأس، حين يلحم بعضُهم بعضًا».

6- عند نزول المطر: كما في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه المتقدِّم، وفيه: «وتحت المطر».

7- آخر ساعة من نهار الجمعة: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يومُ الجمعة ثنتا عشرةَ -يريد:

ساعة- لا يوجدُ مسلمٌ يسأل اللهَ عز وجل شيئًا إلا آتاه الله عز وجل، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر».

وفي المسألة قول آخر مشهور: أنها من دخول الإمام إلى أن تُقضى الصلاة، وقال قوم: إنَّ الساعة ملتمسة بين هذين الوقتين. والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا أن يتحرَّى الأحوال الشريفة، ومن ذلك:

1- دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «دعوةُ المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابةٌ، عند رأسه مَلَكٌ مُوَكَّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال المَلَكُ المُوَكَّلُ به: آمين، ولك بمثل».

2- أن يبيت على ذكر، فَيتعَارَّ من الليل فيدعو: فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يبيت على ذكر الله طاهرًا، فَيتعَارَّ من الليل، فيسأل اللهَ خيرًا من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه».

3- دعوة المسافر: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثُ دعوات مستجاباتٌ، لا شك فيهن: دعوةُ الوالد، ودعوةُ المسافر، ودعوةُ المظلوم».

4- دعوة الصائم: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثةٌ لا تُردُّ دعوتُهم: الصائم حتى يُفطرَ، والإمامُ العادلُ، ودعوةُ المظلوم...».

ورُوي أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان إذا أفطَرَ دعا أهلَهُ وولدَهُ ودعا.

• الثاني : أن يدعو مستقبل القبلة، ويرفع يديه.

• الثالث: خفض الصوت بين المخافتة والجهر.

فعن عائشةَ رضي الله عنها، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110] قالت: «في الدعاء».

وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناسُ، اَرْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا؛ إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه وتعالى جده».

• الرابع: عدم الاعتداء في الدعاء.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55].

والاعتداء فيه: كالدعاء بتعجيل العقوبة، أو الدعاء بالممتنع عادة أو عقلًا أو شرعًا، أو الدعاء في أمر قد فُرِغ منه، أو الدعاء بالإثم وقَطِيعة الرحم.

• الخامس: التضرُّع والخشوع والرغبة والرهبة.

قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

• السادس: أن يجزم بالدعاء، ويُوقِن بالإجابة، ويَصْدُق رجاءه فيه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ادعُوا اللهَ وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أن اللهَ لا يستجيبُ دعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ».

وعنه أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دعا أحدُكم فلا يقل: اللهمَّ اغفرْ لي إن شئتَ. ولكن لِيَعْزِمَ المسألةَ، وليُعَظِّم الرَّغبةَ؛ فإن اللهَ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه».

قال سفيانُ بن عُيينةَ: «لا يمنعنَّ أحدَكم من الدعاء ما يعلم من نفسه؛ فإن الله عز وجل أجاب دعاءَ شرِّ الخلق إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: 36-37] ».

• السابع: أن يُلِحَّ في الدعاء، ويُعْظِم المسألةَ، ويكرِّر الدعاءَ ثلاثًا.

فعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سألَ سألَ ثلاثًا. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إذا سألَ أحدُكم فليكثرْ؛ فإنما يسألُ ربَّه.

• الثامن: أن يفتتح الدعاء بذكر الله وتمجيده والثناء عليه، وأن يختمه بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لحديث فَضَالة بن عُبيد رضي الله عنه قال: سمع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رجلًا يدعو في صلاته لم يمجِّد اللهَ تعالى ولم يصلِّ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «عَجِلَ هذا». ثم دعاهُ، فقال له أو لغيره: «إذا صلَّى أحدُكم، فليبدأْ بتمجيد ربه والثناء عليه، ثم يصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثم يدعو بعدُ بما شاء». وفي لفظ: «فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه».

• التاسع: وهو الأدب الباطن

وهو الأصل في الإجابة: التوبةُ، ورد المظالم، والإقبال على الله عز وجل بكامل قلبه؛ فذلك هو السبب القريب في الإجابة. فعن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمت الدعاءَ، فإن الإجابةَ معه». وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «ادع اللهَ في يوم سَرَّائك، لعله يستجيبُ لك في يوم ضَرَّائك». وعن الحسن،

أن أبا الدرداء رضي الله عنه كان يقول: «جِدُّوا بالدعاء؛ فإنه من يُكْثِرُ قَرْعَ الباب، يوشكُ أن يُفتح له». وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا ينجو فيه إلا مَن دعا بدعاء كدعاء الغريق».

• العاشر: عدم العجلة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «يُستجاب لأحدكم ما لم يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوتُ، فلم يُستجبْ لي».

وليعلم الداعي أن الدعاء عبادة، وربما كانت الإجابة هي قبول العبادة، وكتابة أجرها في الدار الآخرة، أو أراد الله أن يديم العبد الانكسار، أو أجَّل المطلوب لمصلحة لا يدركها العبد، أو دفع عنه من الشر مثلها، كما ورد.

ومن أعظم أسباب القبول: الحال التي يكون عليها الداعي من الانقطاع والاضطرار، والإيمان بالله وقدرته وحكمته ورحمته، وأنه يسمعه ويراه، وتكرار ذلك؛ فإن صاحبه لا يخيب.

فنسأله تعالى بذلك كله، وبكل وسيلة يحبها ويرضاها ويستجيب لصاحبها، أن يصلح أحوالنا، ويقبل أعمالنا، ويهدي ذريَّاتنا، ويجمعنا على محبته وطاعته، وأن يصلح أحوال المسلمين أجمعين، ويهيِّئ لهم من أمرهم رشدًا.

الحلقة الثالثة عشر:
رمضان شهر الفتوحات الإسلامية

شهر رمضان هو شهر الفتوحات العظيمة في تاريخ الإسلام، والصائمون كانوا مثالًا في العمل والإقدام والشجاعة والتضحية. لم يكن شهر رمضان في الحضارة الإسلامية شهرا للعبادة والتقرب إلى الله تعالى فقط، بل كان شهرا للعمل والجهاد لنشر ذلك الدين العظيم، فحينما تقوى النفس وتسمو الروح يعود ذلك بالضرورة على الجسد فيقوى ويشتد، فما الجسد إلا مرآة للروح.

وقد شهد شهر رمضان على مدى التاريخ الإسلامي الفتوحات العظيمة التي كانت عاملاً كبيراً في نشر الإسلام بسماحته وعدله في ربوع العالم، كما شهد الكثير من الأحداث التي سجلها التاريخ علامات فارقة في مسيرة الحضارة الإسلامية.

صقلَ الصِّيامُ نفوسَهم وقلوبَهم فغدَوا حديثَ الدَّهرِ والأحقابِ

صاموا عن الدُّنيا وإغراءاتِها صاموا عن الشَّهوات والآرابِ

سار الغزاةُ إلى الأعادي صُوَّمًا فتحُوا بشهرِ الصَّوم كلَّ رحابِ

ملكُوا ولكنْ ما سهَوا عن صومِهم وقيامِهم لتلاوةٍ وكتـــابِ

همْ في الضُّحى آسادُ هيجاءٍ لهم قَصفُ الرعودِ وبارقاتُ حرابِ

لكنَّهم عند الدُّجى رهبانَه يبكون ينتحِبون في المِحرابِ

ففي السنة الثانية من الهجرة، وفي السابع عشر من رمضان:

كانت غزوة بدر الكبرى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123]. وقد خرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا، يريدون أبا سفيان والغَنِيمة، فأرادها اللهُ ملحمةً، فجمعهم الله بعدوِّهم على غير ميعاد، وخرجت قريش بقَضِّها وقضيضها تسعمائة وخمسين مقاتلًا، بعُدِّتهم وعَتَادهم بَطَرًا ورئاءَ الناس، يقول فاجرهم: لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد. واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللهمَّ أقطعُنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأَحْنِه الغداةَ، اللهمَّ أيُّنا كان أحبَّ إليك وأرضى عندك فانصره اليوم. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19].

واستقبل النبيُّ صلى الله عليه وسلم القبلةَ، ثمَّ مدَّ يديه، فجعل يهتفُ بربه: اللهمَّ أنجزْ لي ما وعدتني، اللهمَّ آتِ ما وعدتني، اللهمَّ إن تَهْلِكْ هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تُعبدُ في الأرض.

وفي السنة الخامسة من الهجرة:

كان استعداد الرسول صلى الله عليه وسلم لغزوة الخندق؛ وكانت في شوال على أصح القولين، وكان من الاستعداد لها ما أشار به سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه من حفر الخندق حول المدينة، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، أما عمق الخندق فلم يكن أقل من سبعة أذرع، والعرض كذلك، وتم حفره في ستة أيام، واستمر الحصار بعد ذلك حول الخندق شهرًا، فرضي الله عن ذاك الجيل القرآني الفريد.

وفي السنة الثامنة من الهجرة:

في العشرين من رمضان كان الفتح الأعظم، الذي أعزَّ اللهُ به دينَه ورسولَه وجندَه وحزبَه الأمين، واستنقذ بلده وبيته الذي جعله هُدى للعالمين من أيدي الكفار والمشركين، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناسُ به في دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجًا.

ودخل فيه رسول الله مكةَ ومعه عشرةُ آلاف من كتائب الإسلام وجنود الرحمن، وتهيَّأت مكة الحبيبة، وكادت جبالها تزحف فرحًا لاستقبال الأمين البار الصابر المحتسب صلى الله عليه وسلم؛ ليعيد إلى ربوعها أشعة أنوار دين إبراهيم عليه السلام. ولا شيء عنده إلا العفو الشامل، صفت نفسه وطهرت، ودخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مكة وهو يقرأ سورة الفتح، وذقنه على راحلته متخشِّعًا.

وفي «الصحيحين» أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دخل مكةَ يوم الفتح، وحول البيت ستونَ وثلاثمائة صنمًا؛ فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81]. وفي «صحيح مسلم» أنه أتى على صنم إلى جنب البيت كانوا يعبدونه، قال: وفي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم قوس، وهو آخذ بسِيَةَ القوس، فلما أتى على الصنم جعل يطعنه في عينه ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

وفي رمضانَ سنة ثلاث وخمسين للهجرة:

افتتح المسلمون وعليهم جُنادةُ بنُ أبي أُمَيَّة جزيرةَ رُودِسَ.

وفي رمضانَ سنة إحدى وتسعين للهجرة:

بعث موسى بنُ نُصَير رجلًا من البربر يسمَّى: طريفًا. ويكنى بأبي زرعة، في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز في أربعة مراكب، حتى نزل ساحل البحر بالأندلس، فيما يحاذي طَنْجَة، وهو المعروف اليوم بـ: جزيرة طريف. سميت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيًا ومالًا كثيرًا، ورجع سالمًا. كما نشب القتال بين المسلمين والصليبيين في أواخر شعبان سنة (114هـ)، واستمر تسعة أيام، حتى أوائل شهر رمضان، وكان المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقي، وكان الصليبيون بقيادة شارل مارتل، وقد أبلى المسلمونَ فيها بلاءً حسنًا، ومات منهم كثيرون، وقد اخترقت صفوفَهم فرقةٌ من فرسان العدو، أحدثت خللًا في صفوف المسلمين، وأصيب القائد الغافقي، وأدَّى ذلك إلى موته، فتسبب ذلك في هزيمة المسلمين.

وقد وقعت على مقربة من طريق روماني يصل بين (بواتييه) والتي تبعد عن باريس (70) كيلو مترًا- و(شاتلرو) في مكان يبعد نحو عشرين كيلومترًا من شمالي شرق بواتييه يسمَّى بالبلاط، وهي كلمة تعني في الأندلس: القصر، أو الحصن الذي حوله حدائق؛ ولذا سُمِّيت المعركة في المصادر العربية: بـ «بلاط الشهداء» لكثرة مَن استشهد فيها من المسلمين، وتسمَّى في المصادر الأوربية: معركة «تور- بواتييه.«

وفي سنة (223هـ) أوقع الملك تَوْفِيل بن مِيْخَائيلَ بأهل سلطنته من المسلمين وما والاها ملحمةً عظيمةً، قَتل فيها منهم خلقًا كثيرًا من المسلمين، وأَسَرَ ما لا يُحصون كثرةً، وكان من جملة من أَسَرَ ألفُ امرأة من المسلمات، ومَثَّل بمَن وقع في أَسْره من المسلمين؛ فقَطَع آذانَهم وآنافهم وسَمَل أعينَهم.

ولما بلغ ذلك المُعْتَصِم انزعج لذلك جدًّا، وصرخ في قصره بالنَّفِير، ثم نهض من فَوْرِه وأمر بتعبئة الجيوش، واستدعى القاضي والشهود، فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقة، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه، وخرج بالجيش إعانة للمسلمين، فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل، وشمَّر راجعًا إلى بلاده، وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء: أي بلاد الروم أمنَعُ؟ فقالوا: عَمُّوريةُ، لم يعرض لها أحدٌ منذ كان الإسلام، وهي عندهم أشرف من القسطنطينية، فعزم على فتحها، فأمكنه اللهُ منها.

رُبَّ وامعتَصماه انطلقَتْ ملءَ أفواهِ الصَّبايا اليُتَّمِ

لامَستْ أسماعَهم لكنَّها لم تلامِسْ نَخْوةَ المعتَصِمِ

وفي يوم الجمعة (25) من رمضان سنة (658هـ) وقعت عين جالوت:

وكانت بين المسلمين والتتار، وتقع عين جالوت بين بَيْسان ونَابُلُس بفلسطين، وكان المسلمون بقيادة المظفَّر سيف الدين قُطُز، والمغول بقيادة كيتوبوقا. وقد سافر الملك المظفَّر بالعساكر من الصالحية، ووصل غَزَّة، والقلوب وجلة، ثم رحل الملك المظفَّر قطز بعساكره من غَزَّة، ونزل الغَوْرَ بعينِ جَالُوت، وفيه جموع التتار، في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان، ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور، وتقاتلا قتالًا شديدًا لم يُر مثله، وكتب الله للمسلمين النصر المؤزَّر، وفازوا فوزًا عظيمًا.

وفي رمضان سنة (702 هـ) وقعت معركة شَقْحَبٍ، أو معركة مرج الصُّفَّر:

وكانت بين المسلمين والتتار، وهي الوقعة التي أفتى ابن تيمية الناس فيها بالفطر مدة قتالهم، وأفطر هو أيضًا، وكان يدور على الأجناد والأمراء فيأكل من شيء معه في يده؛ ليعلمهم أن إفطارهم أفضل؛ ليتقوّوا على القتال؛ فيأكل الناس، وكان يتأول قوله صلى الله عليه وسلم: «إنَّكم قد دنوتُم من عدوِّكم، والفِطرُ أقوى لَكم» عام الفتح، كما في حديث أبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم». ثم نزل النصر على المسلمين قريب العصر يومئذ، واستظهر المسلمون عليهم ولله الحمد والمنة، فلما جاء الليل لجأ التتر إلى اقتحام التلول والجبال والآكام، فأحاط بهم المسلمون

يحرسونهم من الهرب، ويرمونهم عن قوس واحدة إلى وقت الفجر، فنصرهم الله عز وجل، وكشف الله بذلك عن المسلمين غمة عظيمة شديدة.

من ذا الذي رفع السيوفَ ليرفع اسْمك فوق هاماتِ النجوم منارَا

كنَّا جبالًا في الجبال وربَّما سرْنا على موجِ البحار بحارَا

بمعابدِ الإفرنجِ كان أذانُنا قبل الكتائبِ يفتحُ الأمصارَا

لم تنسَ إفريقيا ولا صَحراؤها سجداتِنا والأرضُ تقذفُ نارَا

وكأنَّ ظلَّ السيفِ ظلُّ حديقةٍ خضراءَ تُنبِت حولَها الأزهارَا

الحلقة الرابعة عشر:
السلف الصالح في شهر رمضان

للسلف الصالح أحوال وأقوال في شهر رمضان، وهذا الشهر الذي قال الله عز وجل بشأنه: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾. (البقرة: 185).

ففي هذا الشهر كان السلف الصالح الذين عاشوا في القرون الثلاثة المفضلة؛ وأولهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومن بعدهم من التابعين، أحوالهم وأفعالهم مستقاة من الإمام القدوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا يقومون بالعبادات والطاعات في شهر رمضان أكثر من غيره من الأزمان، ومنها:

- **تلاوة القرآن الكريم:**

كان السلفُ حريصين على الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان. وكانت قراءتهم تدبُّرًا، حتى أصبح التدبر والخشوع عادة، وفي رمضان كانوا يلتمسون فضل الشهر؛ فيحدرون القراءة، ويتفرَّغون لها من كل الشواغل والصوارف والملهيات، فيكون الشهر لهم دورة مكثَّفة شديدة

التأثير، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148]، والمرء ينظر ما هو أصلح لقلبه فيعمله، كما قال الإمام أحمد، وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يعرض القرآن مع جبريل عليه السلام مرة، وفي آخر سنة عرضه مرتين.

وعلى القارئ أن يقرأ بتدبُّر وسَكِينة وترتيل، وهو يُؤجر على قدر ما بذل من الوقت ومن التفكُّر، وليس مَن قرأ سريعًا كمَن قرأ ووقف عند المعاني، وفي «الصحيح»: «الماهِرُ بالقرآن مع السَّفرة الكِرَام البَرَرة، والذي يقرأُ القرآن ويَتَتَعْتَعُ فيه وهو عليه شاقٌّ، له أجران. ويحسن لضعيف القراءة أن يجد مَن يعرض عليه ويصحِّح قراءته ويشرح له بعض المعاني.

- **أما قيام الليل:**

فعن السائب بن يزيد قال: «أمر عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أُبَيَّ بنَ كعب وتميمًا الداريَّ رضي الله عنهما أن يقوما بالناس في رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمِئِين، حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، وما كنا ننصرف إلَّا في فروع الفجر».

وعن مالك عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمعتُ أبي يقول: «كنا ننصرف في رمضان من القيام، فيستعجل الخدم بالطعام مخافة الفجر».

وقال نافع: «كان ابن عُمَر رضي الله عنهما يقوم في بيته في شهر رمضان، فإذا انصرف الناس من المسجد أخذ إداوةً من ماءٍ، ثم يخرج إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لا يخرج منه حتى يصلِّي فيه الصبح».

وعن عمران بن حُدير قال: «كان أبو مِجْلَزٍ يقوم بالحي في رمضان، يختم في كل سبع».

•أما الجود والكرم إذا أقبل شهر رمضان:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس بالخير، وكان أجودُ ما يكون في شهر رمضان».

قال المهلَّب: «وفيه بركة أعمال الخير، وأن بعضها يفتح بعضًا، ويعين على بعض؛ ألا ترى أن بركةَ الصيام، ولقاء جبريل، وعرضه القرآن عليه زاد في جُود النبي صلى الله عليه وسلم وصدقته، حتى كان أجودَ من الريح المرسلة».

يقول يونس بن يزيد: «كان ابنُ شهاب إذا دخل رمضان فإنما هو تلاوة القرآن، وإطعام الطعام».

وكان حماد بن أبي سُليمانَ يُفطِّر في شهر رمضان خمسمائة إنسان، وكان يعطيهم بعد العيد لكل واحد مائة درهم.

•أما حفظ اللسان:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن لم يَدَع قولَ الزور، والعملَ به، فليس لله حاجةٌ في أن يَدَعَ طعامَه وشرابَه».

قال المهلَّب: «وفيه دليل أن حُكم الصيام الإمساك عن الرَّفَث وقول الزور، كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك عن ذلك، فقد تنقَّص صيامَه، وتَعرَّض لسخط ربه، وترك قبوله منه».

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصيامُ جُنَّةٌ، فلا يَرْفُث ولا يَجْهَل، وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمَهُ، فليقل: إني صائم. مرتين.

وفي رواية مسلم: «إذا أصبح أحدُكم يومًا صائمًا، فلا يَرْفُث ولا يَجْهَل، فإن امرؤٌ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائمٌ، إني صائمٌ. قال المازريُّ في قوله: «إني صائمٌ»: «يحتمل أن يكون المراد بذلك أن يخاطب نفسه على جهة الزَّجْر لها عن السِّباب والمشاتمة».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليس الصيامُ من الطعام والشراب وحده، ولكنه من الكذب والباطل واللغو والحلف». وعن جابر بن عبد الله

رضي الله عنهما قال: «إذا صمتَ، فليصُمْ سمعُك وبصرُك ولسانُك عن الكذب والمآثم، ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار وسَكِينة يوم صيامك، ولا تجعل يوم فطرك ويوم صيامك سواء». وعن أبي المتوكل، أن أبا هريرة رضي الله عنه وأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إذا كنتَ صائمًا، فلا تجهل، ولا تساب، وإن جُهِل عليك، فقل: إني صائم». وعن مجاهد قال: «خصلتان مَن حفظهما سَلِمَ له صومه: الغيبة والكذب». وعن أبي العالية قال: «الصائمُ في عبادةٍ ما لم يغتَبْ».

ألا في اللهِ لا في النَّاس شَالتْ بداودَ وأخوتِه الجُذوعُ

إذا ما اللَّيل أظلمَ كابدُوه فيسفرُ عنهمُ وهمُ ركوعُ

يعالون النَّحِيبَ إليه شوقًا وإن خفضوا فربُّهمُ سَمِيعُ

أطار الخوفُ نومَهمُ فقاموا وأهلُ الأمنِ في الدُّنيا هجوعُ

لهم تحت الظلامِ وهم سجودٌ أنينٌ منه تَنفرِجِ الضُّلوعُ

وخُرسٌ في النَّهارِ لطولِ صمتٍ عليهم من سكينتِهم خشوعُ

اللهمَّ ألحقنا بهم في الصالحين، واجمعنا وإياهم مع الذين أنعمتَ عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

الحلقة الخامسة عشر:

أخطاء بعض الصائمين في شهر رمضان

الصوم مدرسة للتدريب على تطلُّب الفضل، ومحاولة التخلُّص من العيوب والعادات الذَّميمة، واكتساب الأخلاق والطرائق المحمودة. ولا غَرْوَ أن يقع لبعض الصائمين عثرات أو زلَّات، والنفوس في هذا الشهر تستشرف معرفة العيوب وتداركها، وقد تقع بعض الأخطاء نتيجة عادة أو أصل شرعي صُرف عن مقصده، أو نوايا حسنة لإظهار الفرح والسرور بهذا الشهر، أو جهلًا، أو غير ذلك مما حاصله في نهاية الأمر مخالفة الشرع المطهَّر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (مَن أَحْدَثَ في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو رَدٌّ).

من هذه الأخطاء ما هو محرَّم، ومنها ما هو مكروه، ومنها ما هو بدعة، وقد تكون خاصة بالصوم، أو بما تبعه من عادات وغيره. وعلى المؤمن أن يسعى إلى الخير جهده، ويتعرَّف على عيوبه، ويتجرَّع مرارة الاستماع إليها، ويبذل وُسعه في الخلاص منها، مستعينًا بالله الذي لا يخيب سائله. ومن الأخطاء:

• التقصير في صلاة الجماعة:

فبعض الناس يُقبلون على العبادة في رمضان وتمتلئ بهم المساجد، ولكن يَعْرِض لبعضهم التقصير وعدم المحافظة على الصلوات، وعدم الانتظام في أدائها؛ أو ترك الصلاة في الجماعة مع المسلمين في المساجد، وأخطر منه ترك الصلاة بالكلية كلها أو بعضها، فعن بُريدةَ بن الحُصيب رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: « العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاةُ، فمَن تركها فقد كَفْرَ. وقال صلى الله عليه وسلم : مَن ترك صلاةَ العصر، فقد حَبِطَ عملُه».

والأحاديث في الباب كثيرة، وحملها بعضهم على كفر النعمة أو الكفر الأصغر، وحملها آخرون على الترك بالكلية، وأيًّا ما كان، فإن الحديث صحيح، وهو من أحاديث الوعيد التي ينبغي بقاء هيبتها في النفوس، دون أن تعني الحكم على آحاد الناس بالكفر، كما يقع لبعض المتسرِّعين، أو ترك الصلاة عليهم إذا ماتوا، أو معاملتهم معاملة غير المسلمين، فمَن ثبت له أصل الإسلام ظاهرًا لم يُحكم بخروجه منه إلا بيقين لا شك فيه، حتى المنافقون كان النبي صلى الله عليه وسلم يعاملهم معاملة المسلمين في العقود والمواريث والصلاة عليهم وسائر أحكام الدنيا، أما أمر الآخرة فإلى

الله تعالى. فينبغي للمسلم أن يحافظ على عبادته وصلاته، ويجعل رمضان فرصة للتغيير، والتعوُّد على الخير، والإقبال على الله عز وجل.

• عدم التحرُّز من الغيبة:

وهي تضرُّ بالصوم ضررًا عظيمًا؛ فعن أبى هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرونَ ما الغِيبةُ؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أَعلمُ. قال: «ذكرُك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيتَ إن كان في أَخي ما أقولُ؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه».

• السعي بالنميمة:

وهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد، وقيل: إفشاء السر، وهتك الستر عما يُكره كشفه. قال الإمام الغزالي رحمه الله: «كل مَن حُملت إليه نميمة وقيل له: إنَّ فلانًا قال فيك كذا وكذا، أو فعل في حقك كذا، أو هو يدبِّر في إفساد أمرك، أو في ممالاة عدوك، أو تقبيح حالك، أو ما يجري مجراه، فعليه ستة أمور:

1. الأول: أن لا يصدِّقه؛ لأنه نمَّام فاسق، وهو مردود الشهادة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: 6].

2. الثاني: أن ينهاه عن ذلك وينصحه، ويقبِّح عليه فعله، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [لقمان: 17].

3. الثالث: أن يبغضه في الله، فإنه بَغِيض عند الله، ويجب بغض مَن يبغضه الله تعالى، والمراد بغض فعله المحرَّم والتحرُّز منه، وليس بغض شخصه.

4. الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء؛ لقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12].

5. الخامس: أن لا يحملك ما حُكي لك على التجسس والبحث عن تحقيق ذلك؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: 12].

6. السادس: أن لا يقع فيما نَهَى النمامَ عنه، فلا يحكي؛ فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أنبِئكم ما العَضْهُ؟ هي النميمةُ، القَالَةُ بين الناس». وإنَّ محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ الرجلَ يصدُقُ حتى يُكتبَ صدِّيقًا، ويكذبُ حتى يُكتبَ كذَّابًا».

وعن حذيفةَ رضي الله عنه، أنه بلغه أن رجلًا يَنُمُّ الحديثَ، فقال حذيفةُ: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخلُ الجنةَ نمَّامٌ».

ورُوي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله، أنه دخل عليه رجلٌ، فذكر له عن رجل شيئًا، فقال له عمر: «إن شئتَ نظرنا في أمرك: فإن كنتَ كاذبًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، وإن كنت صادقًا، فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: 11]، وإن شئتَ عفونا عنك؟ فقال: العفو يا أميرَ المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا». وقال الحسن البصري رحمه الله: «مَن نمَّ إليك نمَّ عليك».

• إطلاق البصر في المحرمات:

قال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ...﴾ [النور: 30-31] الآية. وقال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ [النور: 30-31].

وهذا أمر لعباده المؤمنين بأن يغضُّوا أبصارهم عما حرَّم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح الله لهم النظر إليه، وسواء كان النظر إلى الخلقة الأصلية التي أبدعها الله، أو إلى صورة أو شريط مرئي أو نحوها، فالأمر واحد، وربما كان النظر إلى الصور أشد؛ لما فيها من التفنن في اختيار الجمال، والمبالغة في الكشف والتعرّي، كما هي فتنة هذا الزمان ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 27].

وقال صلى الله عليه وسلم: لكل بني آدم حظٌّ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النَّظَر، واليدان تزنيان وزناهما البَطْشُ، والرِّجْلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبَل، والقلبُ يَهْوَى ويتمنَّى، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يكذِّبه».

• الشتم والسبُّ والبذاءة وسوء الخلق:

وربما كان الصوم من جهةٍ سببًا للغضب والثورة؛ بسبب الجوع والعطش، بيد أنه سبب عظيم لضبط الناس لإحساس الصائم بأنه متلبِّس بعبادة تقرِّبه إلى الله، وأن الغضب والفحش والبذاءة يخدشها، ولذا أُمر الصائم بالإعراض، وأن يقول: «إني صائم». وربُطت حكمة الصيام بترك الزُّور والعمل به والفُحش.

• الكسل والخمول:

فبعض الصائمين يتَّخذ من رمضان فرصة لترك العمل والنوم، وربما فرَّط في واجباته الوظيفية أو الحياتية، في حين كان رمضان عند السلف الماضين موسمًا لمضاعفة الأعمال والتنافس فيها، بما في ذلك عبادات المسلم اليومية التي كانوا يضربون فيها أروع المثل ظاهرًا وباطنًا. وبعض الكسالى يحتجون بحديث ضعيف، وهو: «نوم الصائم عبادة»، وعلى فرض صحته، فإنه لا يدل على مراد البطَّالين، الذين يقضون نهارهم نومًا

وليلهم سهرًا ولهوًا، وإنما المراد منه: نومه الطبيعي الذي يتخلل يومه من قيلولة وغيرها، مما يستعان به على العبادة. والواجب على الصائم أن يستغلَّ موسمَ رمضان، ويجتهد فيه؛ فلعله لا يدرك رمضان آخر.

• التوسع في المآكل والمشارب:

فبعض الصائمين يملؤون بيوتهم بأصناف المطعومات والمشروبات، مما قد لا يؤكل في غير رمضان، وهذا ينافي حكمة الصوم ومشروعيته. عن أبي كَرِيمة المقدام بن مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابنِ آدمَ أَكَلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبه، فإن كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنَفَسِه». وكيف يفعل الصوم فعله إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام، حتى استمرت العادات بأن تُدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيُؤكل من الأطعمة فيه ما لا يُؤكل في عدة أشهر.

• ترك الصوم من غير عذر:

وهي معصية كبيرة وجُرم عظيم، يجب على فاعلها التوبة والإنابة إلى ربه، وأن يستغفره لذلك، ويقضي ما أفطره، فالصوم من أركان الإسلام الخمسة التي عليها مدار النجاة. ومن ذلك: السهر، والذي يفضي بصاحبه إلى أمور، منها:

أ- ترك صلاة الفجر.

ب- التكاسل عن أمانة العمل، إن كان موظَّفًا.

ج- ترك صلاة الظهر، وربما العصر.

د- الإرهاق الشديد طول يومه، إن تحامل على نفسه واستيقظ.

وما أعظم أن يوفَّق الصائمُ للتخلِّي عن عادة التدخين في هذا الشهر الكريم، واستشارة المجرِّبين والأطباء وأهل الخبرة؛ حفاظًا على تقواه وطيب رائحته وماله، وعلى صحته وصحة أسرته وأطفاله وزملائه الذين تتسلَّل إليهم الأمراض، بسبب ما يسمى بـ (التدخين السلبي)، والله أعلم.

الحلقة السادسة عشر:

السواك في رمضان

يتجنَّب بعضُ الناس السواكَ في نهار رمضان؛ اعتقادًا بأنه غير مشروع، والصواب أنه لا تعارض بين السواك والصيام، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «لولا أن أشقَّ على المؤمنين - وفي رواية: على أُمَّتي- لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». وفي أخرى: «عند كلِّ وُضوءٍ». ويُشرع للصائم أن يستاك في رمضان كما يستاك في غيره.

أما حديث: «إذا صُمتُم، فاستاكوا بالغَداةِ، ولا تستاكوا بالعَشِيِّ؛ فإنَّه ليس من صائم تيبس شفتاه بالعشي، إلا كانت نورًا بين عينيه يوم القيامة». فهو حديث ضعيف جدًّا، فقد رواه البزار، والطبراني من حديث علي وخَبَّاب رضي الله عنهما مرفوعًا. ورواه الدارقطني، والبيهقي، وغيرهما موقوفًا. وسنده في غاية الضعف، فلا يُحْتَجُّ به. وقد عارضه حديث عامر بن رَبيعة رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يستاك وهو صائِمٌ». وهو وإن كان ضعيفًا أيضًا، إلا أنه خير من حديث: «إذا صمتم فاستاكوا بالغداة، ولا تستاكوا بالعَشِيِّ».

ويغني عن هذين الحديثين: قوله صلى الله عليه وسلم المتقدِّم: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاةٍ». وقوله: «لولا أن أَشُقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ وُضوءٍ». فيدخل في ذلك الصلاة والوضوء للصائم وغير الصائم؛ قبل الزوال وبعد الزوال.

والمواضع التي يُشرع للصائم وللإنسان أن يستاك فيها ستة، وهي:

1. الأول: عند الصلاة؛ لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدِّم: «لولا أن أشقَّ على أُمَّتي، لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاةٍ».
2. الثاني: عند الوضوء؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن أشقَّ على أمتي، لأمرتهم بالسواك عند كل وُضوء».
3. الثالث: عند دخول المنزل؛ لما في «صحيح مسلم» عن شُريح بن هانئ قال: سألتُ عائشةَ: بأيِّ شيءٍ كان يبدأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل بيته؟ قالت: «بالسواك».

وهذا دليل على أهمية تطييب الفم عند مقابلة الأهل والاقتراب منهم؛ فإن طيب رائحة الفم مما يعزِّز الرضا والحب بين الزوجين.

4. الرابع: عند تغير رائحة الفم؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «السواك مَطْهَرةٌ للفم، مرضاةٌ للرِّبِّ». فقوله: «السِّواكَ مطْهرة

للفم» دليل على أن السواكَ يُشرع لتطهير الفم وتنظيفه. وهو حديث عظيم يدل على أن من مرضاة الله العناية بالطِّيب والسواك والنظافة والطهارة.

وإنما كان السواك مرضاة للرب؛ لأنه مطهرة للفم، فليتأمل المؤمن هذا المعنى؛ ليعلم أن الله يحب النظافة ويرضاها لعباده المؤمنين، ولذا شرع لهم باب التقرُّب إليه بها، تحفيزًا على فعلها واتخاذها عادة، ولم يشرع لهم أبدًا التقرُّب بأضدادها من المعاني القبيحة المرذولة.

5. الخامس: عند الاستيقاظ من النوم؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يَشُوصُ فاه بالسواك. وذلك لإزالة رائحة النوم من الفم.
6. السادس: عند قراءة القرآن، وقد جاء في هذا أحاديث عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره قال: «إنَّ أفواهَكم طُرُق للقرآن؛ فطيِّبوها بالسواك».

أما ما يظنُّه البعضُ من قول النبي صلى الله عليه وسلم: «لَخلُوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك»، وأنه يعارض السواك في رمضان، ففيه نظر، لسببين:

•الأول: لأن الخُلُوف رائحة تنبعث من المعدة بسبب خلوها من الطعام، وليس من الفم، فالسواك لا يزيل الخلوف، ولا مدخل له فيه.

•الثاني: أن كثيرًا من العلماء قالوا: إن هذه الرائحة هي عند الله تعالى، فلا تعلق لذلك بأمور الحياة الدنيا، والسواك يزيد رائحة الفم عند الله تعالى طيبًا إلى طيب، فإن السواك أيضًا هو مما يرضي الله سبحانه، وهو من الأعمال المشروعة المستحبة.

وأما إذا بقي في فم الإنسان شيء من أثر السواك، فعليه حينئذ أن يزيله دون أن يفضي به ذلك إلى وسوسة؛ فإن كثيرًا من الناس يشقُّون على أنفسهم، ويبالغون ويشدِّدون؛ فيشدِّد الله تعالى عليهم، وربما يبتلون بألوان من البلايا والشكوك بسبب مبالغتهم، حتى إن منهم مَن يجد مشقة عظيمة في المضمضة والاستنشاق، وهذه من الآصار والأغلال التي وضعها الله تعالى عن هذه الأمة، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة:286]، قال الله تعالى: «قد فعلت». فكل الآصار والأغلال التي كانت على الأمم السابقة قد وضعها الله تعالى عن هذه الأمة، فينبغي تجنب العسر والمشقة والتشديد الذي هو مدعاة العقوبة والمؤاخذة، ومآله إلى كراهية الإنسان للعبادة.

وفي السواك منافع، منها:

أنه يطيِّب الفم، ويشد اللِّثَة، ويقطع البلغم، ويصفِّي الصوت، ويسهِّل مجاري الكلام، وينشِّط للقراءة والذكر والصلاة، ويطرد النوم، ويُرضي الرب، ويعجب الملائكة، ويكثر الحسنات.

وينبغي أن يُعلم أن استخدام معجون الأسنان داخل في معنى تطييب الفم، وسبب لنظافة الأسنان واللثة وطيب رائحتها، والاعتياد عليه لدى الصغار والكبار من المعاني الحسنة المطلوبة، واستعماله في أثناء الصيام جائز؛ لأنه ليس طعامًا، ولا يذهب إلى الجوف، وإنما هو داخل الفم ثم يخرجه، فهو كالمضمضة، وربما كان أبلغ في التنظيف من السواك، بيد أن السواك يكون في جيب المؤمن، ويحقِّق به الاتباع في كل وقت، مما لا يتسنَّى معه استخدام الفرشة ونحوها.

والحمد لله الذي جعل في ديننا فسحة الطيب والجمال والنظافة في الفم والبدن والثياب، وجعلها قربة وزُلفى لرب الأرباب، فاجتمع على مدحها

والثناء عليها الدين والعقل والفطرة والمصلحة، وينبغي أن تكون التربية والتهذيب حافزًا ودافعًا لديمومتها.

الحلقة السابعة عشر:

رمضان شهر التوبة

يعود الكثير من العباد في شهر رمضان إلى ربهم، ويُسْلِمونَ وجوههم له، ويقلعون عن الآثام؛ وذلك لمعرفتهم بجود الله تعالى على عباده، وصفحه وعفوه عنهم، وخاصة في هذا الشهر الكريم. وهو تعالى يحب طاعة عباده كلهم، ويحب التوبة من كل عاص. وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغي عليه وأُوذي وتَسلَّط عليه خصومُه شيءٌ أنفع له من التوبة النصوح. والله عز وجل إذا أراد بعبده خيرًا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار والذل والافتقار والاستعانة به وصدق الملجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة رحمة به.

والتوبة هي الرجوع إلى الله، وترك الذنب، والندم على ما فَرَّط، والعزم على ترك المعاودة، والقيام بحقوق الشرع، وتدارك ما أمكن، وقد حث اللهُ تعالى في كتابه الكريم على التوبة في مواضع كثيرة، يقول سبحانه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود:

3]. ويقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31]. ويقول عن نبيه آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: 121-122].

وفي «صحيح مسلم» عن الأَغَرِّ المُزَنِيِّ رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إنه ليُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائةَ مرة». وفي «صحيح مسلم» أيضًا، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إن اللهَ ليبسُطُ يدَه بالليل؛ ليتوبَ مُسِيءُ النهار، ويبسُطُ يدَه بالنهار؛ ليتوبَ مُسِيءُ الليل، حتى تطلعَ الشمسُ من مغربها».

والتوبة نوعان: واجبة، ومستحبة:

فالتوبة الواجبة: هي التوبة من فعل المحرمات وترك الواجبات، وأعظم المحرمات الوقوع في الكفر والشرك والنفاق، وكذلك التوبة من سائر المعاصي، كأكل الربا، وأكل الحرام، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، والغيبة والنميمة، وقول الزور، والسرقة، وسرقة الوقت العام، بالتأخر عن العمل أو التهاون والتفريط، ومثلها ذنوب القلوب، كالحقد والضغينة والبغضاء والحسد والكراهية والتقاطع، وكذلك التوبة من ترك الواجبات، كترك الصلاة، أو الصيام، أو الحج، أو الزكاة..

أما التوبة المستحبة: فهي التوبة من فعل المكروه أو ترك المستحب، كأن يتوب من ترك الوتر، أو ترك السنن الرواتب، أو الغفلة عن القرآن، أو ترك قيام الليل، أو غير ذلك من الأعمال والطاعات والصالحات، كما يتوب من فعل الأمور المكروهة التي لا يحبها الله ولا رسوله، ولو لم تكن محرمة.

ولا غنى للإنسان عن التوبة ، وأنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام كانوا على رأس التائبين، ومنهم مَن كان يقول: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23] ، ومنهم مَن كان يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: 16].

وللتوبة شروط:

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلَّق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

- أحدها: أن يقلع عن المعصية.
- الثاني: أن يندم على فعلها.

• الثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا.

وإن تعلَّقت بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالًا أو نحوه رَدَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكَّنه منه، أو طلب عفوه. ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها، صحَّت توبته من ذلك الذنب، وبقي عليه الباقي.

وهذه بعض العوامل التي تساعد على التوبة:

أولًا: قوة العزيمة، فإن خور العزيمة وضعفها من أسباب الوقوع في المعاصي والآثام، ومن أسباب كون الإنسان يتردَّد، فيتوب اليوم ويعصي غدًا، ويتوب غدًا ويعصي بعد غد.

ثانيًا: الدعاء، وسؤال الله التوبة النصوح، وقد كان من دعاء نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128] ، وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول: «ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الغفور».

ثالثًا: تغيير البيئة التي تدعو للمعصية، ومَن جالس قومًا كان منهم وحُشر معهم؛ ولذلك قال ذلك العالم الإسرائيلي للرجل الذي تاب: «لا تعُدْ إلى أرضِك؛ فإنَّها أرضُ سوءٍ».

رابعًا: عدم القنوط واليأس؛ فإن هذا من أعظم مداخل الشيطان على الإنسان، والواقع في المعصية غالبًا يداخله شيء من اليأس، واليأس لا يجوز، قال تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

خامسًا: أن يُنَمِّي الإنسانُ منابع الخير في نفسه، فكل إنسان فيه قابلية للخير، فليكثر من الصلاة، وقراءة القرآن، والاستغفار، والصيام، والذكر، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، والإحسان إلى الناس، وعدم ظلم الآخرين، وغير ذلك من الأمور التي يستطيعها الإنسان، والله سبحانه يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ۝ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 114-115].

سادسًا: الإخلاص لله، فإذا أخلص الإنسانُ لربه، وصدق في طلب التوبة، أعانه اللهُ عليها.قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146].

سابعًا: قصر الأمل، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسولُ الله بمَنْكِبِي، فقال: «كُنْ في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل». وكان ابنُ عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلا تنتظرِ المساءَ، وخُذْ من صحتك لمرضكَ، ومن حياتك لموتكَ».

ثامنًا: التفكُّرفي أضرارالذنوب والمعاصي، ومنها:

- حرمان العلم:
- حرمان الرزق:
- تعسير أموره عليه:
- أنها تُورث الذل
- أنها تزيل النعم الحاضرة.
- المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة:

تاسعًا: التفكُّر في حكمة الله في خلق المعصية وتمكين الإنسان منها، وذلك أن العبودية عبوديتان:

• عبودية العقل؛ بالاستسلام لله والإيمان به، والنظر في دلائل وحدانيته وعظمته، والكف عن استحضار الشبهات وتعزيزها والحديث عنها، ومعالجتها بالفكر والذكر والعلم والسؤال والتضرُّع.

• عبودية القلب؛ بالحب والخوف والرجاء والامتناع عن الشهوات والمحرمات.

والإنسان قد يتمرَّد على ربه، فتمرُّد العقل يتجلَّى فيما وقع للشيطان، وأن معصيته لم تكن شهوة محضة، بل كان فيها شبهة أنه خير من آدم عليه السلام، فكيف يسجد له! ولذا أبعده الله وأبلسه وجعله شيطانًا رجيمًا.

عاشرًا: الإكثار من الكفارات، ومكفرات الذنوب كثيرة، منها ما هو قضاء وقدر، كالأمراض والمصائب وسكرات الموت، وأهوال القيامة، وكلما زاد صبر العبد عليها عظم ثوابه، وكان تكفيرها لذنبه أعظم وأتم.

ومن الكفارات ما هو من فعل الإنسان، كالاستغفار و الصدقة؛ فهي تطفئ الخطيئة، وبر الوالدين وصلة الرحم، وعموم الإحسان إلى الخلق، فعلى المؤمن أن يسعى في مزاحمة السيئة بالحسنة، وتثقيل كفة الحسنات وترجيحها بالأعمال الصالحة، ومحاصرة الذنوب والسيئات؛ لئلَّا تمتد وتتسع وتفترش عمر الإنسان ووقته وطاقته وجوارحه، والمرء لما غلب

عليه، فمَن غلب عليه الخير، فهو من الأخيار، ولو تلبَّس ببعض التقصير، ومَن غلب عليه الشر، فهو من الأشرار.

وربما استزل الشيطانُ العبدَ من ذنب صغير إلى اليأس، وهو أعظم الذنوب، ومع اليأس يترك العمل الصالح، ويصبح عقله وقلبه وحياته رهنًا للسيئات، نسأل الله العافية.

الحلقة الثامنة عشر:

حُسن الخلق

إنَّ هدف الرسالات السماوية هو التزكية، فإبراهيم عليه السلام يدعو ربه أن يبعث في ذريته رسولًا منهم يتلو عليهم آياته، ويعلِّمهم الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم، وقد أجاب اللهُ دعوتَه، فبعثَ في الأميّين هذا الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، والذي قال الله في حقه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، وامتنَّ سبحانه ببعثة النبي عليه السلام، فقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

وقد صرَّح الرسولُ صلى الله عليه وسلم بمقصد من أعظم مقاصد بعثته، حين قال: «إنَّما بُعثتُ لأتمم مكارمَ الأخلاق». وفي رواية: «صالحَ الأخلاق».

والمقصود بالأخلاق معنى أشمل مما هو متعارف عليه بين الناس، فالأخلاق: معاملة العبد مع ربِّه، ومعاملته مع نفسه، ومعاملته مع الخلق، وهذا معنى صحيح. وذِكْرُ هديه صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر يطول، وقد أُلِّفت فيه كتب عديدة.

ومن أشهر هذه الأحاديث: حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما شيءٌ أثقلُ في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُق حَسَنٍ، وإن اللهَ ليبغضُ الفاحشَ البذيءَ». وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقًا». وعن النَّواس بن سَمْعان رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن البِرِّ والإثم، فقال: «البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطَّلع عليه الناسُ». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أكملُ المؤمنين إيمانًا، أحسنُهُم خُلُقًا، وخيارُهم خيارهم لنسائهم».

لقد قرأ على مُحَيَّاه الطاهر علامات الصدق والصفاء والوفاء، وهذا لا يتحقَّق إلا لمَن صفت قلوبهم وصلحت سرائرهم وتجرَّدت لله تعالى.

والأخلاق كثيرة، وأصولها أربعة:

الأول: الصبر، الذي يحمل الإنسان على التحلِّي بالحِلْم، والأَنَاة، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والتسامح والعفو والصفح، والصوم قرين الصبر، فالشهر إذًا دعوة إلى التسامي والتسامح والتصافي ونسيان العثرات، وطي الملفات القديمة التي عكَّرت صفو الوداد بين أخوين شقيقين أو زميلين أو

جارين أو شريكين، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: 22].

الثاني: العفة، وهي التي تحمل الإنسان على الانكفاف عن الرذائل، والتعلُّق بالمعالي والأمور الكبار.

الثالث: الشجاعة، وهي التي تحمل الإنسان على العزة والكرم، والجود والبذل، وتنهاه عن التهوُّر، أو الغضب.

الرابع: العدل مع النفس، ومع الناس، ومن العدل أن يكون الإنسان معتدلًا في أخلاقه، فإن كل خلق حسن فهو مكتنف بخلقين ذميمين، فالإنسان إذا أفرط انتقل إلى خلق ذميم، وإذا فرَّط انتقل إلى خلق ذميم، فالحِلم خلق حسن فاضل، فإذا زاد وتعدَّى تحوَّل إلى الذِّلَّة والمهانة، وإذا نقص تحول إلى الغضب والتهور وشدة الانفعال.

والكرم خلق حسن فاضل مطلوب؛ لكن إذا زاد الكرم وتعدَّى تحوَّل إلى إسراف وتبذير، وإذا نقص تحوَّل إلى بخل وحرص وشحٍّ.

والإنسان مجبول على كثير من الخصال والأخلاق، سواء ورثها عن آبائه، أو تلقَّاها بحُكم البيئة التي عاش فيها، وانطبعت في نفسه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، في قصة وفد عبد القَيْسِ، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم

قال لأَشَجِّ عبد القَيْسِ: «إنَّ فيك خَصْلتين يحبهما الله: الْحِلمُ والأَنَاةُ». وفي رواية أنَّه صلى الله عليه وسلم ذكر له، أن اللهَ جبله على هذين الخُلقين، فقال الرجل: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما اللهُ ورسولُه.

ومن الوسائل المفيدة في إصلاح أخلاق الإنسان:

•الأولى: مجاهدة النفس بحملها على الخلق الحسن، وكفِّها عن الخلق الذَّمِيم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69] ، والحصول على الخلق الفاضل من الهداية.

•الثانية: المحاسبة، وتكون بعد الفعل، ومَن يحاسب نفسه يصل إلى خير كثير في سائر أموره؛ ولذلك أقسم الله سبحانه بالنفس الَّلوَّامة، وورد عن الحسن البصري وغيره أنهم قالوا: إنها نفس المؤمن.

•الثالثة: التعلية، تعلية الإنسان أخلاقه الفاضلة، وإيجاد مصارف مناسبة مشروعة لها.

•الرابعة: الإبدال، وهي أن يحرص الإنسان على تبديل الأخلاق المذمومة بأخلاق حسنة، ويُعْنَى بالجوانب الإيجابية في شخصيته وفي خُلقه.

الصومُ مدرسةُ التعفُّفِ والغِنَى وتقارُبُ البعَداءِ والأغرابِ

الصـومُ رابـطةُ الإخـــاءِ قـوية وحِبالُ ودِّ الأهـلِ والأصحابِ

الصـومُ درسٌ في التساوي حافلٌ بالجــودِ والإيثـارِ والتَّرحـــابِ.

الحلقة التاسعة عشر:

الاعتكاف في شهر رمضان

يتأثر المرء بمَن حوله وبأسرته ومدرسته ومجتمعه وأصدقائه؛ فإنَّ أعظم تأثير هو تأثير المرء على نفسه، بسياستها وفهمها وتدريبها وصقلها ومعاقبتها، وأصل ذلك معرفة عيوبها ومواطن ضعفها، ومعرفة فضائلها ومواطن قوتها، فاللهمَّ بصِّرنا بمواطن الضعف في نفوسنا، وأعنَّا على تداركها، يا أرحم الراحمين، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

ويعرف الاعتكاف لغة بأنه: لزوم الشيء، وحبس النفس عليه. وهو المكث في المسجد بنية التقرُّب إلى الله عز وجل، ومن معانيه: الرِّباط والجِوار. وقد شُرِع الاعتكافُ لحِكَم كثيرة، وأعظمها: التقرُّب إلى الله سبحانه وتعالى، والانقطاع عن الناس، والتفرُّغ للعبادة والقُربة المحضة، ويكون في أوقات معينة يصفو فيها قلب العبد، ويُقبل على ربه، ويتخفَّف من الشواغل، حتى ما كان منها واجبًا، كحقوق الأهل والأولاد، وغير ذلك. فبالاعتكاف يتفرَّغ العبد لعبادة الله وذكره وتسبيحه واستغفاره وقراءة القرآن؛ وفي هذا تصفية للقلب.

وكان صلى الله عليه وسلم يعتكف في العشر الأواخر من رمضان حتى توفَّاه الله، وتركه مرة فقضاه في شوَّال. واعتكف مرة في العشر الأول، ثم الأوسط، ثم العشر الأخير؛ يلتمس ليلة القدر، ثم تبيَّن له أنها في العشر الأخير، فداوم على اعتكافه حتى لحق بربه.

حُكْم الاعتكاف:

فهو سنة، حكى الإجماع عليها ابن المنذر وغيره، والأحناف والشافعية يرون أنه سنة مؤكَّدة في العشر الأواخر من رمضان. قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

وقد اعتكف الرسول صلى الله عليه وسلم واعتكف أزواجه من بعده، واعتكف الصحابة رضي الله عنهم.

ولا بد أن يكون الاعتكاف في مسجد باتفاق؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]، وقوله سبحانه: ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125].

وأفضل المساجد للاعتكاف والصلاة هي: المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الأقصى، ثم المسجد الجامع، ثم المسجد الذي تقام فيه الجماعة. ويصح الاعتكاف في المسجد الجامع غير المساجد الثلاثة، وما ذكر بعض أهل العلم من أنه لا يصح الاعتكاف إلا في أحد المساجد الثلاثة، فقول مرجوح، والجماهير من أهل العلم قالوا بصحة الاعتكاف في كل مسجد تقام فيه الصلاة؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]، فعمَّم ولم يخصِّص.

مسائل حول خروج المعتكِف من المسجد:

-الأولى: يجوز الخروج لقضاء الحاجة للضرورة، كالبول ونحوه، وهذا بإجماع الفقهاء، كما ذكر ابن المنذر وغيره.

-وفي حديث عائشة رضي الله عنها: «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان».

-الثانية: جواز الخروج للوضوء، والاغتسال الواجب خصوصًا، إذا لم يتمكن منه في المسجد من غير أذى ولا ضرر، وهذا بإجماعهم أيضًا.

-الثالثة: الخروج للأكل والشرب، أما إذا لم يجد مَن يأتيه بطعامه وشرابه فإنه يخرج، ولا يُخلُّ هذا باعتكافه.

-الرابعة: الخروج لغسل الجمعة، ونحوه من الأغسال المستحبة؛ فهذا جائز عند المالكية خلافًا للجمهور.

-الخامسة: الخروج لصلاة الجمعة، وهذا واجب كما أسلفنا، ويخرج حتى لو لم يشترطه.

-السادسة: الخروج لعيادة المريض، وصلاة الجنازة، فعند الجمهور أنه لا يخرج لذلك إلا إذا اشترطه، فعن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: «إن كنتُ لأدخل البيتَ للحاجة والمريض فيه، فما أسأل عنه إلا وأنا مارَّة». فهذا دليل على أنه لا يخرج لعيادة المريض، ولا لاتباع الجنائز.

-السابعة: الخروج نسيانًا، فلو أنه نسي وخرج من معتكفه، فإنه لا يبطل اعتكافُه بذلك عند الجمهور، وهو الصحيح، وهو مذهب الحنابلة والشافعية؛ لقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

-الثامنة: الخروج للمرض، والمرض نوعان: مرض يسير، مثل الصداع اليسير أو الحُمَّى اليسيرة، فهذا لا يخرج بالاتفاق، أما المرض الشديد الذي يحتاج الإنسان معه إلى الخروج، فإنه لا يُبطل الاعتكاف على الصحيح؛ كأن يذهب إلى المستشفى، وقد ينام فيه بعض الوقت، أو يتناول مغذِّيًا أو غيره، ثم يعود إلى معتكفه ويبني على ما مضى.

مبطلات الاعتكاف:

-أولًا : الجماع، باتفاق الفقهاء، إذا كان عامدًا عالمًا ذاكرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187] ؛ لكن إن نسي فاعتكافه صحيح وماضٍ ولا شيء عليه، وإن باشر وقبَّل فأنزل فسَد اعتكافه، وإن باشر أو قبَّل أو لمس ولم ينزل لم يفسد اعتكافه.

-ثانيًا : الخروج من المسجد لغير حاجة، فإن ركني الاعتكاف هما: المكث في المسجد والنية.

-ثالثًا : زوال التكليف، كالجنون والرِّدَّة والسُكر ونحوها مما يزول بها عن الإنسان التكليف.

-رابعًا : الحيض والنفاس عند الأكثرين؛ لأن الحائض والنفساء لا تمكثان في المسجد عندهم.

-هل الصيام شرط للاعتكاف في غير رمضان؟

الراجح أنه مستحب وليس بواجب؛ والأولى للمعتكِف أن يصوم، أو يعتكف في وقت الصيام، ولا يجب عليه ذلك، وهذا مذهب الحنابلة والشافعية والظاهرية، ونقل عن جمع من الصحابة، كعلي وابن عباس

وابن مسعود وغيرهم رضي الله عنهم، وهو مذهب الحسن البصري وأبي ثور وداود وابن المنذر.

وليس للاعتكاف حد عند جمهور الفقهاء، فكل قدر مكثه في المسجد يمكن أن يُسمَّى اعتكافًا، حتى لو مكث ساعة من نهار، وبعضهم يقول: لحظة. وقيل: أقلُّه يوم. وقيل: ليلة. وقيل: يوم وليلة. والأقرب -والله أعلم- أنه إن جلس وقتًا زائدًا عن المعتاد في المسجد بنية الاعتكاف جاز له ذلك. ويمكن أن يقال: الاعتكاف بين الوقتين؛ بين الظهر والعصر، أو العصر والمغرب، أو المغرب والعشاء؛ لحديث: «أَلَا أدلُّكم على ما يَمْحُو اللهُ به الخطايا ويرفعُ الدرجات؟». قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إسباغُ الوضوء على المكاره، وكثرةُ الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكمُ الرِّباطُ فذلكم الرِّباطُ».

ثمرات الاعتكاف:

-أولًا: التربية على الإخلاص؛ لأن المعتكِف لا يراه أحد إلا الله جل وعلا.

-ثانيًا: التربية على التخلُّص من فضول الكلام، والطعام، والنوم، والخُلطة.

-ثالثًا: التربية على العبادة؛ خاصة قيام الليل، وقراءة القرآن، والاستغفار، والذكر، والمناجاة.

-رابعًا: تقوية الصِّلة بالله تعالى، واللجوء إليه ومناجاته.

-خامسًا: التفكُّر والتعوُّد على الاستخدام الأمثل لنعمة العقل.

-سادسًا: مراجعة النفس ومحاسبتها في أمور الدين والدنيا، وفي أمور العبادة وغيرها.

-سابعًا: التربية على الاستخدام الأمثل للوقت، واستغلاله في القراءة والحفظ والمدارسة في العلم.

-ثامنًا: التعوُّد على عُزلة مؤقتة بعيدًا عن الناس، يملك المؤمن بها زمام نفسه، ويصفو فكره، ويتأمَّل أحواله، وينظر لحياته نظرة جديدة، بعيدة عن الضغوط والمؤثِّرات.

-تاسعًا: ترك المعاصي أو التقليل منها.

-عاشرًا: التربية على الصبر، ومجاهدة النفس، وعدم اتباع الهوى والشيطان.

ويحسن بالصائم أن يعتكف، ولو وقتًا يسيرًا؛ ليجد أثر هذه العبادة على نفسه، وليأخذ منها بنصيب، وليتشبَّه بالصالحين، ويُسهم في إحياء هذه

السنة العظيمة، مع أهمية الحفاظ على نظافة المساجد وسكينتها وحقوق عامة المصلِّين، فلا يجوز أن يكون الاعتكاف سببًا في تكدُّس الملابس والأدوات في المساجد، أو رفع الأصوات، بل هو مظهر من مظاهر السكينة والإخبات لعبادٍ يسألون الله فيعطيهم، ويدعونه فيستجيب لهم، ويعبدونه فيتقبل منهم بمنِّه وفضله، وهو أرحم الراحمين.

الحلقة العشرون:

فضل العشر الأواخر من شهر رمضان

تبدأ العشر الأواخر من رمضان من ليلة الحادي والعشرين من رمضان، وتنتهي بخروج رمضان، سواء كان ناقصًا أو تامًّا، فإن نقص الشهر فهي تسع، وإطلاق العشر عليها تغليبًا للأصل. وللعشر الأواخر من رمضان مزيةُ فضلٍ على غيرها؛ فإنها ليالي الإحياء التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحييها كلها، وفيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخص العشر الأواخر بمزيد عناية من الاجتهاد والعبادة، والحرص على الخير ويجتهد فيها ما لا يجتهد في غيرها، ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشرُ شدَّ مئزرَهُ، وأَحيا ليلَهُ، وأَيقظ أهلَهُ». وزاد مسلم: «وجدَّ وشدَّ المئزرَ».

وقد جاء من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لا أَعلمُ نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قرأَ القرآن كلَّه في ليلة، ولا صلَّى ليلةً حتى الصبح، ولا صام شهرًا كاملًا غيرَ رمضانَ». فيُحمل قولها: «وأَحيا ليله» على أنه صلى الله

عليه وسلم كان يقوم أغلب الليل، أو يقوم الليل كله؛ لكن يتخلَّل ذلك العشاء والسحور وغيرها، فالمراد: إحياء معظم الليل.

ومن ذلك إيقاظ الرجل أهله للصلاة والعبادة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «وأيقظ أهله» أي: أيقظ أزواجه للقيام، وقد كان صلى الله عليه وسلم يوقظ أهله في سائر السَّنة؛ لكن كان ذلك لقيام بعض الليل، ففي «صحيح البخاري» عن أم سَلَمةَ رضي الله عنها قالت: استيقظَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذاتَ ليلةٍ فقال: «سبحان الله! ماذا أُنزل الليلةَ من الفتن، وماذا فُتح من الخزائن، أيقظُوا صواحبات الحُجَر، فَرُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة».

وكان صلى الله عليه وسلم يطرق ابنته فاطمة وزوجها علي رضي الله عنهما بالليل، ويقول: «أَلَا تقومان تصلِّيان؟». ولكن إيقاظه صلى الله عليه وسلم لأهله في العشر الأواخر من رمضان أظهر وأكثر منه في سائر السَّنَة.

ومن ذلك الاجتهاد في العبادة:

ففي «صحيح مسلم» تقول عائشةُ رضي الله عنها: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يجتهدُ في العشر الأواخر ما لا يجتهدُ في غيره». وقال الشافعي: «ويسنُّ زيادة الاجتهاد في العبادة في العشر الأَواخر من رمضان».

وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر شدَّ المئزرَ، كما في «الصحيحين»، وقد تقدَّم.

وشَدُّ المئزر كناية عن الاستعداد للعبادة والاجتهاد والقيام فيها زيادة على المعتاد والتشمير لها؛ كما يقال: شددت لهذا الأمر مئزري، أي: شمَّرت له وتفرَّغت. وقيل: «شد مئزره» كناية عن اعتزال النساء وترك الجماع، وهو الأقرب، فهذه كناية معروفة عند العرب، قال قائلهم:

قَومٌ إِذا حارَبوا شَدُّوا مَآزِرَهُم عَنِ النِّساءِ وَلَو باتَتْ بِأَطهارِ

ومنها: تحرِّي ليلة القدر:

فمن عظيم فضل هذه العشر أن فيها ليلة القدر، وهي أعظم ليالي العام، فهي خير من ألف شهر، فلو قُدِّر للعبد أن يجتهد ويواصل عبادة ربه قرابة أربعة وثمانين عامًا ليس فيها ليلة القدر؛ لكان قيامه ليلة القدر وحدها خيرًا من هذه السنوات الطوال، وهذا من عظيم فضل الله، وإنعامه على هذه الأمة، وفتح السبيل للمنافسة والتشمير وسلوك الطرق السريعة المحصِّلة للكثير من الخير، بالقليل من الجهد، خاصة مع الثقة بالله وحسن الظن به.

قال كثير من المفسِّرين: «العمل فيها خير من العمل في ألف شهر». وهذه الليلة في أوتار العشر الأواخر أرجى؛ وهي في السبع الأواخر أقرب. وأقرب السبع الأواخر ليلة سبع وعشرين؛ لحديث أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه، وسيأتي بتمامه. فجدير بالمسلم أن يتحرَّى هذه الليلة، وأن يحيي وقته ذكرًا وتسبيحًا وتلاوةً واستغفارًا.

ويستحب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «التمسوها في العشر الأَواخر». وإنَّما تلتمس بالعمل الصالح، لا بأَنَّ لها صورة وهيئة يمكن الوقوف عليها بخلاف سائر اللَّيالي، كما يظن بعض الناس، إنَّما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: 3-4]، وقال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ* تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ* سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 1-5] ، فبهذا بانت عن سائر اللَّيالي.

ومنها: اعتكاف العشر الأواخر:

وهو من أجلِّ الأعمال في العشر، كما سبق تفصيله، ولو اعتكف ليلة أو يومًا أو بعض يوم. ومقصوده: عكوف القلب على الله تعالى والخلوة به، ويستحضر المعتكف النية الصالحة فيه، مع احتساب الأجر، واستشعار الحكمة منه، وأن يلزم مسجده ولا يخرج إلا لحاجة ضرورية، مع المحافظة

على السنن والأذكار مُطلَقِها ومقيَّدِها، كالرواتب والضحى والقيام، وأذكار طرفي النهار، وأدبار الصلوات وغير ذلك، والإكثار من قراءة القرآن، والإقلال من الطعام والنوم وكثرة الكلام فيما لا ينفع، مع النصيحة للمسلمين والتواصي بالحق والصبر في رمضان، وخاصة العشر الأواخر.

ويستحب كذلك البذل والجود، في غير سرف ولا مخيلة؛ لما جاء في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم أجودَ الناس بالخير، وكان أجودُ ما يكونُ في رمضان».

قال في «المجموع»: والجود والإفضال مستحب في شهر رمضان. وفي العشر الأواخر أفضل؛ اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالسلف؛ ولأنه شهر شريف، فالحسنة فيه أفضل من غيره؛ ولأن الناس يشتغلون فيه بصيامهم، وزيادة طاعتهم عن المكاسب، فيحتاجون فيه إلى المواساة».

أنت في الدَّهرِ غرةٌ وعلى الأرْ ضِ سلامٌ وفي السمـاء دعـاءُ

يتلقَّاك عنـد لُقيـاك أهـلُ الـْ

ـبِـرِّ والمؤمنـــون والأصفيـاءُ

فلهم في النَّهار نَجوى وتَسبيـ

ـحٌ وفي الليلِ أدمُــعٌ ونـداءُ

ليلةُ القدرِ عندَهم فرحةُ العُمْـ

ـرِ تدانَت على سناها السَّماءُ

الحلقة الحادية والعشرون:

ليلة القدر

ليلة القدر إنها الليلة المباركة، وأفضل ليالي الدهر، وخير ساعات العمر. التي قال سبحانه وتعالى فيها: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر: 1: 3].

إنها الليلة المباركة في كتاب الله عز وجل، يقول تعالى: ﴿حم* وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ* إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ* أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ* رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: 1-6].

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، وسَعِيد بن جُبير، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم من علماء السلف ومفسِّريهم، أنَّ الليلة المباركة هي ليلة القدر، وفيها أُنزل القرآن... وفيها يُفْرَقُ كل أمر حكيم، وقيل: تُقدَّر في ليلة القدر مقادير الخلائق على مدى العام، فيُكتب فيها الأحياءُ والأموات، والناجون والهالكون، والسُّعداء والأشقياء، والعزيز والذَّليل، ويُكتب فيها الْجَدْب والقحط، وكل ما أراده الله تبارك وتعالى في تلك السنة.

وفي سبب تسميتها بذلك خمسة أقوال:

•أحدها: لعظيم قدرها، وجلالة مكانتها عند الله عز وجل، وكثرة مغفرة الذنوب وستر العيوب في هذه الليلة المباركة، قال الزهري: «القدر: العظمة، من قولك: لفلان قدر». ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91].

•الثاني: قال الخليل بن أحمد: إنَّه من الضيق، أي: هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون. ويشهد له قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: 7].

•الثالث: قال ابن قُتيبة: «إن القدر: الحكم، كأنَّ الأشياء تقدَّر فيها».

•الرابع: قال أبو بكر الوَّراق: «لأنَّ مَن لم يكن له قدر، صار بمراعاتها ذا قدر».

•الخامس: قال علي بن عبيد الله: «لأنَّه نزل فيها كتاب ذو قدر، وتنزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذوو قدر».

والأقرب شمول السبب لذلك كله؛ فهي عظيمة القدر، وذلك لما فيها من تقدير الآجال والأعمال، ونزول الملائكة، وكثرة العبادة، وتحوُّل العبد من

ضفة إلى ضفة أخرى باغتنام الفرصة، وحمل النفس على الطاعة والجو الإيماني الروحاني الذي يعين على اتخاذ قرار التوبة والتغيير.

فضائل ليلة القدر:

1- أنها خيرٌ من ألف شهر:

قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: 3]. قال مجاهد: «عملها وصيامها وقيامها خيرٌ من ألف شهر». ولعل من حكمة ذلك، أن مَن قصَّر أو فرَّط في عمره، يعلم أنه يقدر على تدارك ما فات باغتنام هذه الليلة التي تعوِّض مَن كُتب له القبول عن عمر طويل.

2- نزول الملائكة والروح فيها:

قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4]. قال البغوي: «قوله عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ يعني جبريل عليه السلام معهم، ﴿ فِيهَا ﴾ أي: ليلة القدر ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: بكل أمرٍ من الخير والبركة». وقال ابن كثير: «أي: يكثر تنزُّل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزُّل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة

القرآن، ويحيطون بحِلَقِ الذكر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدقٍ تعظيمًا له».

3- أنها سَلَام إلى مطلع الفجر:

قال تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: 5]. عن مجاهد في قوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ قال: «سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى». وقيل: إن معنى السلام: الخير والبركة، قاله قتادة، وكان بعض العلماء يقول: الوقف على ﴿سَلَامٌ﴾ على معنى تنزّل الملائكة بالسلام.

وهي دعوة إلى السلام والمحبة والتصالح وكف الأذى وصلة الأرحام والأقارب والأصدقاء والجيران، والتخلِّي عن الضغينة والحقد والبغضاء والكيد والعدوان والبغي على الناس، والسلام من أسمائه تعالى، وهو التحية التي وضعها بين عباده.

4- أن مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن صام رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفر له ما تقدَّم من ذنبه، ومَن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدَّم من ذنبه». قال ابن بطَّال: «معنى قوله: «إيمانًا واحتسابًا» يعني مُصدِّقًا بفرض صيامه، ومُصدِّقًا بالثواب

على قيامه وصيامه، ومحتسبًا مريدًا بذلك وجه الله، بريئًا من الرياء والسمعة، راجيًا عليه ثوابه». وقال النووي: «معنى إيمانًا: تصديقًا بأنه حق، مقتصد تحصيل فضيلته، ومعنى احتسابًا: أن يريد الله تعالى وحده، لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص، والمراد بالقيام: صلاة التراويح، واتفق العلماء على استحبابها».

ويُستحب تحرِّيها في رمضان، وفي العشر الأواخر منه خاصة؛ لقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: «التَمِسوها في العشرِ الأواخرِ». وخاصة في أوتار العشر الأواخر، وهي ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «في تاسعةٍ تبقى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى».

وفي «صحيح البخاري» من حديث عبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خرج يُخبرُ بليلة القدر، فتَلَاحى رجلان من المسلمينَ، فقال: «إني خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، وإنه تَلَاحى فلانٌ وفلانٌ، فُرفعتْ، وعسى أن يكون خيرًا لكم، التمسوها في السبع والتسع والخمس». وهذا دليل على شؤم الخصومة في غير حق، خاصة الخصومة في الدين وعظيم ضررها، وأنها سبب في غياب الحق وخفائه على الناس.

بل جاء من حديث معاويةَ رضي الله عنه عند أبي داود، وابن حبان، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «ليلةُ القدر ليلةُ سبعٍ وعشرين». وصحَّحه ابن عبد البر، والنووي، وغيرهما، ولكن رجَّح أحمد، والدارقطني، وابن رجب، وابن حجر وقفه.

وليلة القدر أرجى ما تكون ليلة سبعٍ وعشرين؛ للحديثين السابقين، ولأنَّ هذا مذهب أكثر الصحابة، وجمهور العلماء، حتى إنَّ أُبي بن كعب رضي الله عنه كان يحلف على ذلك، كما في «صحيح مسلم» عن زِرِّ بن حُبيشٍ قال: سمعتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ يقولُ، وقيل له: إن عبدَ الله بنَ مسعودٍ يقول: «مَن قام السنةَ، أصابَ ليلةَ القدر». فقال أُبيٌّ: «والله الذي لا إله إلا هو، إنها لفي رمضان- يحلف ما يستثني- ووالله إني لأعلم أيُّ ليلةٍ هي، هي الليلةُ التي أمرنا بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقيامها، هي ليلةُ صَبِيحة سبعٍ وعشرين، وأمارتُها أن تطلع الشمسُ في صَبِيحة يومها بيضاءَ لا شعاعَ لها».

وكذلك ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنها ليلة سبع وعشرين.

وقد ورد أن عمرَ رضي الله عنه لما جمع الصحابة، وجمع ابن عباس معهم، فقالوا لابن عباس: هذا كأحد أبنائنا، فلماذا تجعله معنا؟ فقال: إنه فتى له قلب عقول، ولسان سئول. وأثنى عليه، ثم سأل الصحابةَ عن ليلة القدر، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر، فقال لابن عباس، فقال: إني

لأعلم، أو أظن أين هي، إنها ليلة سبع وعشرين. فقال: وما أدراك؟ قال: إن الله تعالى خلق السموات سبعًا، وخلق الأرضين سبعًا، وجعل الأيام سبعًا، وخلق الإنسان من سبع، وجعل الطواف سبعًا، والسعي سبعًا، ورمي الجمار سبعًا؛ ولذلك رأى ابن عباس أن ليلة القدر ليلة سبع وعشرين.

ويستحب الإكثار في ليلة القدر من الدعاء، خاصة الدعاء الذي ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم علَّمه عائشةَ رضي الله عنها حين قالت: إن أُريتُ ليلةَ القدر، ماذا أقول؟ فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «قولي: اللهمَّ إنك عفوٌّ تحبُّ العفوَ، فاعفُ عنِّي».

وكذلك الحرص على صلاة التراويح، والاعتكاف، والتوبة والإنابة، وغير ذلك من أعمال الطاعة، وخاصة أعمال القلوب، فإن الكثير من الناس يتنافسون في الأعمال الظاهرة، ويحرصون عليها أكثر من حرصهم على المعاني الباطنة التي هي الأصل، فكل حسنة في القلب تورث الكثير من العمل الصالح الظاهر.

أما العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر:

ففي حديث أُبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم ذكَرَ أن من علامتها أن الشمسَ تطلع صبيحتها لا شُعاع لها. وعند الطبراني من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:

«إنها ليلة بلجة- يعني: منيرة مضيئة- لا حارة ولا باردة، لا يُرمى فيها بنجم». يعني: لا تُرى فيها هذه الشهب التي تُرسل على الشياطين.

وذكر بعض أهل العلم علامات أخرى لا أصل لها، وليست صحيحة، إنما نذكرها لبيان أنها لا تصح، من ذلك: ما ذكره الطبري عن قوم أنهم قالوا: إن من علامات ليلة القدر أن الأشجار تسقط حتى تصل إلى الأرض، ثم تعود إلى أوضاعها. وهذا لا يصح. وذكر بعضهم أن المياه المالحة تصبح حلوة في ليلة القدر. وهذا لا يصح. وذكر بعضهم أن الكلاب لا تنبح فيها. وهذا لا يصح. وذكر بعضهم أن الأنوار تكون في كل مكان، حتى في الأماكن المظلمة. وهذا لا يصح، بل هذه الأقوال مخالفة للحس وللشرع، ولو كانت كذلك، لكانت حجة قطعية على الناس، وإنما تعبَّد اللهُ الناسَ بالإيمان بالغيب.

وليس من الضروري لِمَن أدرَكَ ليلةَ القدر أن يعلم أنها ليلة القدر؛ بل قد يكون ممن لم يكن له منها إلا القيام والعبادة والخشوع والبكاء والدعاء مَن هم أفضل عند الله تعالى، وأعظم درجة ومنزلة ممن عرفوا تلك الليلة، فالعبرة هي بالاستقامة، ولزوم الجادة، والتعبد لله عز وجل، والإخلاص، كما ذكره طائفة من أهل العلم.

وليلة القدر باقية إلى قيام الساعة؛ لما رواه أحمد، والنسائي عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه قال: يا رسولَ الله، هل تكون –أي: ليلة القدر- مع الأنبياء ما كانوا، فإذا قُبضوا رفعت، أم هي إلى يوم القيامة؟ قال: «بل هي إلى يوم القيامة».

وهو دليل على خيرية هذه الأمة وامتدادها وفضلها، وسعة رحمة الله تعالى بعباده، وأن مِنَنَه وعطاياه للتائبين والعابدين والخاشعين لا تزال حتى يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الحلقة الثانية والعشرون:

رمضان شهر الاستغفار

إنَّ الخطأ من طبيعة ابن آدم؛ فهو مخلوق من طين، ورُكِّبت فيه غرائز وشهوات يميل لها ميلًا فطريًّا، وخلق اللهُ الشياطينَ الذين تمحَّضوا للشر والفساد وإغواء بني آدم. وقد يستقيم الإنسان ويصلح حتى يكون في أعلى المنازل، ويتفوَّق على الملائكة المقرَّبين، وقد ينحطُّ ويتردَّى حتى يصبح في أسفل سافلين، ويتشبَّه بالمردة والشياطين.

وقد امتنَّ الله عز وجل على عباده بأنه الغفور، الحليم، التواب، واسع المغفرة، غافر الذنب، وقابل التَّوب، الرحمن، الرحيم، الكريم، الوهَّاب، الجَوَاد؛ وبمقتضى ذلك يغفر لمَن يشاء من عباده، ويتجاوز عن سيئاتهم وذنوبهم وخطاياهم، إذا تابوا إليه وأنابوا ولم يصرُّوا، ومن أعظم ما شرعه الله لنا: الاستغفار، والاستغفار: هو طلب المغفرة، وهي وقاية شر الذنوب مع سترها.

وقد أمر الله سبحانه نبيَّه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار في مواطن كثيرة، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [محمد: 19].

وجاء في «الصحيح» عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: إن كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم لَيقوم ليُصلِّي حتى تَرِمَ قدماه أو ساقاه، فيقال له، فيقول: «أَفَلَا أكونُ عبدًا شكورًا». وكان يصوم حتى يقال: لا يفطر. وكان يقوم من الليل أكثره، أو نصفه، أو ثلثه، وربما قام الليل كلَّه إلا قليلًا، وكانت حياته صلى الله عليه وسلم جهادًا متواصلًا، ودعوة وابتلاءً، ومع ذلك قال له ربُّه: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: 19]، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55]، وقال له: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 106].

حالات الاستغفار عديدة، ومنها:

- أولًا: حالَ التلبُّس بالعبادة أو الفراغ منها، فيُقبل العبد على الاستغفار، يدفع به عن نفسه تبعة التقصير، أو معرَّة الاغترار، وفي آخر ما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 3]. وفي «الصحيح» أنه ما صلَّى صلاةً بعدما نزلت عليه هذه السورة، إلا قال فيها: «سبحانك اللهمَّ ربَّنا وبحمدك، اللهمَّ اغفرْ لي». وكان يختم كل عمل صالح بالاستغفار؛ كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد، فإنَّه كان إذا فرغ منه وأشرف على المدينة قال: «آيبونَ تائبونَ عابدونَ، لربِّنا حامدونَ». وحياته كلها كانت عملًا صالحًا، فختمها

بالاستغفار. وشُرِع أن يُختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة.

- ثانيًا: عند المعصية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]. وفي الحديث: «ما من عبد يُذنبُ ذنبًا، فيُحسنُ الطُّهورَ، ثم يقوم فيصلِّي ركعتين، ثم يستغفرُ اللهَ، إلَّا غفَرَ اللهُ له». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ..﴾ إلى آخر الآية.

- ثالثًا: حالة الغفلة ، وكلُّ الناس خطَّاؤون، وما أكثر الغافلين الشاردين عن ربهم! ومَن تأمل هَدي سيد البشر، وجده لا يفتر عن الاستغفار، وفي حديث الأَغَرِّ المُزني رضي الله عنه، أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنه ليُغَانُ على قلبي، وإني لأستغفرُ اللهَ في اليوم مائة مرة». وقوله: «ليُغَانُ» هو ما يغشى القلب من الفترات والغفلات عن الذكر. وهو بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم يختلف عنه بالنسبة لعموم الناس؛ فإن مقام النبوة رفيع، وشأنها عظيم، وما تتطلَّبه من كمال الحضور والصفاء والتجرُّد، شيء يعز على الناس إدراكه وفهمه، وإنما يختار له الله تعالى الصفوة من عباده: ﴿وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: 47].

والاستغفار التام الموجِب للمغفرة، هو ما قارن عدم الإصرار، كما مدح الله تعالى أهله، ووعدهم بالمغفرة. قال أحد السلف: «مَن لم يكن ثمرةُ استغفاره تصحيحَ توبته، فهو كاذب في استغفاره». وفي ذلك يقول بعضهم:

أستَغفِرُ اللهَ مِــن (أَستَغفِـرُ اللـهَ) مِن لَفَظةٍ بَدَرَت خالَفْتُ مَعنـاها

وَكَيفَ أَرجُو إِجَابَاتِ الدُّعَاءِ وَقَد سَدَدْتُ بِالذَّنبِ عِـندَ اللهِ مَجـراها

فأفضل الاستغفار ما قُرن به ترك الإصرار، وهو حينئذ يؤمِّل توبة نصوحًا، وإن قال بلسانه: «استغفر الله» وهو غير مقلع بقلبه؛ فهو داع لله بالمغفرة، كما يقول: «اللهمَّ اغفر لي». فقد يُرجى له الإجابة.

وأفضل أنواع الاستغفار : أن يبدأ العبد بالثناء على ربه، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله المغفرة، كما في حديث شدَّاد بن أوس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سيِّدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربي، لا إله إلا أنتَ، خلقتني وأنا عبدُك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبُوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبُوءُ لك بذنبي، فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت».

ومن أنواع الاستغفار: أن يقول العبدُ ما جاء في الحديث: «مَن قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيَّ القيومَ وأتوبُ إليه. غُفر له، وإن كان

قد فَرَّ من الزحف». وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان يُعَدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «ربِّ اغفرْ لي وتُبْ عليَّ، إنك أنت التَّوابُ الغفور». ومنه: أستغفرُ الله. ومنه: ربِّ اغفرْ لي.

وفوائد الاستغفار كثيرة؛ منها:

1. أنه سبب لمغفرة الذنوب، كما قال نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10].

2. وسبب لنزول الأمطار: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: 11].

3. والإمداد بالأموال والبنين: ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12].

4. ودخول الجنات: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ [نوح: 12]. ونعيم الدنيا بالرزق والبركة، فالجنات هنا تشمل رزق الدنيا، وجنات الآخرة، كما تشمل الخيرات التي أصلها الماء، ولذا قال: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 12].

5. وزيادة القوة بكل معانيها: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52]. ومنها القوة النفسية التي تحصل بسكينة النفس وهدوء القلب وزوال الألم المصاحب للذنب.

6. والمتاع الحسن: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: 3]. فالحياة تطيب للصالحين المتَّقين، وتطيب للخطَّائين إذا تابوا وأنابوا واستغفروا، وعوَّضوا بعمل الخير عن الزَّلل والخَطَل.

7. ودفع البلاء: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33]. وذلك أن الاستغفار سبب في عدم الاندفاع مع الذنوب والمعاصي، فالمستغفر مدرك لخطئه، مقرٌّ بذنبه، غير مصرٍّ عليه ولا مكابر.

8. والاستغفار سبب لنزول الرحمة: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: 46].

9. وهو كفارة للمجلس؛ فعن أبي بَرْزَةَ الأَسْلميِّ رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهدُ أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوبُ إليك». فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، إنك لتقولُ قولًا، ما كنتَ تقوله فيما مضى؟ فقال: «كفارةٌ لما يكونُ في المجلس».

10. وهو يزيل الهم والغم؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن أكثرَ من الاستغفار، جعل اللهُ له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسب».

يُروى عن لقمان عليه السلام أنَّه قال لابنه: «يا بنيَّ، عوِّد لسانك: اللهمَّ اغفر لي. فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلًا». وقالت عائشة رضي الله عنها: «طُوبى لمَن وُجد في صحيفته استغفار كثير». وقال أبو المنهال: «ما جاور عبدٌ في قبره من جارٍ، أحب من الاستغفار». وقال قتادة: «إن هذا القرآن يدلُّكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار». وقال الحسن: «أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقاتكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة».

اللهم إنا ظلمنا أنفسنا ظلمًا كثيرًا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لنا مغفرة من عندك، وارحمنا؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

الحلقة الثالثة والعشرون:

النساء شَقَائقُ الرجال

عن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «النساءُ شَقَائقُ الرجال».

وهذا حديث صحيح عظيم، وهو أصل في مساواة النساء بالرجال في أصول الأحكام، فما ثبت للرجال ثبت للنساء، وهو مُطَّرد في جُلِّ الأحكام، إلا ما خصَّه الدليل، فيجب عليهنَّ الصوم، ويستحب لهنَّ الإكثار من التلاوة، والإنفاق في سبيل الله، وقيام الليل، والاجتهاد في الدعاء، وغير ذلك من القربات والطاعات.

لقد جاء القرآن الكريم بذكر النساء في سورة كاملة طويلة، وسمِّيت بعض سور القرآن باسم امرأة، كما في سورة: «مريم»، وخصِّصت سور «التحريم»، و«الطلاق» للحديث عن النساء وأحكامهن، وفي سورة «النور» و«الأحزاب» حديث مفصَّل عن أحكام النساء والحجاب والزواج، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ

وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

وقد جاء في سبب نزولها ما رواه الترمذي عن أمِّ عُمارةَ الأنصارية رضي الله عنها، أنها أَتَتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقالت: ما أَرَى كلَّ شيء إلاَّ للرجال، وما أَرَى النساءَ يُذْكَرْنَ بشيء!؟ فنزلت هذه الآية.

بيد أن ثمة أمورًا تهم المرأة في رمضان، منها:

-أولًا: أن الحائض والنفساء لا تصلِّي ولا تصوم في رمضان، ولكنها تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة، كما ثبت في حديث عائشةَ رضي الله عنها قالت: «كان يصيبنا ذلك، فنُؤمرُ بقضاء الصوم، ولا نُؤمرُ بقضاء الصلاة».

-ثانيًا: بعض النساء يستعملن حبوب منع العادة الشهرية في رمضان؛ حرصًا منهن على الخير من صيام وصلاة مع المسلمين، أو العمرة، وهي تسبِّب العديد من الأضرار، إذا لم تستخدم بإشراف طبي. لكن إن أخذت المرأة هذه الحبوب، فلتعلم أنه لا يجب عليها قضاء الأيام التي توقفت فيها العادة عنها، بل صومها صحيح.

-ثالثًا: صلاة المرأة في بيتها أفضل، وكثير من النساء يَرْتَدْنَ المساجد لصلاة التراويح، وهذا لا بأس به، فقد لا تجيد تلاوة القرآن، أو تكون الجماعة

أنشط لها. لكن على المرأة إن خرجت، أن تراعي أن يكون خروجها على تستر، غير متبرجة بزينة ولا متطيّبة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّما امرأَةٌ أَصابت بَخورًا، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة».

قال ابن حجر: «ويلحق بالطِّيب ما في معناه؛ لأنَّ سبب المنع منه ما فيه من تحريك داعية الشهوة، كحسن الملبس، والحلي الذي يظهر، والزينة الفاخرة، وكذا الاختلاط بالرجال». وأن يكون الخروج بإذن الزوج. وبعض النساء إذا خرجت إلى المسجد انشغلت وغفلت عن أطفالها، مما يعرضهم للخطر من حوادث أو ضياع أو اختطاف، فمن الخطأ انشغال الأم بنافلة وتركها واجبًا من رعاية أبنائها، والمحافظة على أخلاقهم وأرواحهم، كما هو الحال مع أبيهم.

-رابعًا: ينبغي أن تحذر المرأة خاصة في رمضان من الغيبة؛ فإنها داء متفشٍّ ومرض عُضال، وهي ذنب عظيم وإثم كبير، قال تعالى:﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: 12].

-خامسًا: المحافظة على الوقت في رمضان، فالوقت هو رأس مال العبد مع ربه، وهو كنز يملكه كل الناس، غنيهم وفقيرهم، شريفهم ووضيعهم؛ لكنَّ السعيد مَن تفطَّن له. وتأمل قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزولُ قدما عبد يومَ القيامة، حتى يُسأَلَ عن عمره فيما أَفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله، من أَين اكتسبه وفيما أَنفقه، وعن جسمه فيما أَبلاه».

والمسلمة التقية هي التي تنتهز الفرص، وتجعل من رمضان شهر عبادة وخير وبركة على نفسها ومَن حولها، فهي راعية في بيتها ومسؤولة عن رعيتها.

ولعل المطبخ أكثر ما يلتهم وقت الصائمة، ولو احتسبت المرأة ما تقوم به، واستغلت وقتها في مطبخها؛ لكان غنيمة باردة، وذلك بأن تُشغل لسانها بالذكر والتسبيح والاستغفار، خاصة قبل المغرب، أو تسمع وتتابع البرامج المفيدة أثناء إعداد الطعام. ولتحذر المسلمة من الإفراط في الطعام، وكأن شهر رمضان شهر أكل وشرب وليس شهرًا للصيام؛ ومن الناس مَن تصيبه التخمة في رمضان، وتتفاقم الأمراض عنده لكثرة الطعام والشراب. وفي الحديث عن المقدام بن مَعْدِ يكَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطن، حَسْبِ ابنِ آدمَ أكلاتٌ يُقمن صُلْبه، فإن كان لا محالةَ، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه».

-سادسًا: بعض النساء قد تصوم رمضان ولا تصلِّي، أو لا تصلِّي إلا في رمضان، والله جل وعلا يقول عن الصلاة:﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، فالصلاة ركن الإسلام وعمود الدين، ولا يفرِّط فيها إلا مَن سفه نفسه، وخسر حظه. وبعض الفتيات تنام عن صلاة الفجر حتى تطلع الشمس، أو تنام عن الظهر حتى يدخل وقت العصر، فهي تحافظ على الصيام، وتضيِّع الصلاة، والله يقول:﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59].

والمرأة ألين قلبًا، وأرق عاطفة، وأقرب رحمًا، كما قال سبحانه:﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: 81]. وقد أبدلهما من الغلام جارية. فعلى الأسرة المسلمة أن تقدِّر قدر الأنثى؛ مولودة، وبنتًا، وأختًا، وأمًّا، وزوجة؛ فهي سر من أسرار الرحمة، وباب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب السعادة، وليس يصلح أن تكون الحياة صدامًا ولا صراعًا بين الجنسين، بل يجب أن يكون التكامل والتعاون والتواصل هو أساس العلاقة.

وقد أصبحت وسائل الإعلام العالمية والمحلية تتناقل قصصًا وأخبارًا مفزعة عمًّا يسمى بـ (العنف الأسري)، والذي تكون ضحيته في الغالب هي

الأنثى، بما جُبلت عليه من ليونة ورِقَّة وضعف، فتتعرَّض للحرمان من حقوقها وعضلها ومنعها من الزواج، تحكُّمًا أو طمعًا في راتبها، أو بسبب الخلاف بين الأولياء، ويُفرض عليها الصمت، فلو تكلَّمت أو رفعت أمرها لجهة رسمية، لعدُّوا ذلك فضيحة وعارًا، فالكلام في حقها مصيبة والصمت مصيبة، وهي معاناة صامتة تذهب ضحيتها أعمار الكثير من الفتيات الصالحات.

والعدوان على الطفولة أيضًا بالانتهاك أو الضرب أو القيد والسجن، أو التوبيخ والتعنيف الدائم، أو الحرمان من حق التعليم واللهو المباح، بسبب الاختلاف بين الأبوين أو الانفصال، وقد تعيش الطفلة بعيدًا عن أمها، وتتولَّاها امرأة لا تخاف الله، فتؤذيها وتنسى أن الله بالمرصاد، ينتقم من أولئك المعتدين، وينتصر للضعفة الذين لا ناصر لهم سواه.

ورُبَّ دمعة طفل وقعت بموقع، وكانت سببًا في عقوبة خاصة أو عامة لمَن باشر الذنب أو علم به وسكت، فإن هذا من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي الحديث: «ابْغُوني ضعفَاءَكُم؛ فإنَّما تُرزَقونَ وتُنصَرونَ بضعفائكم». فالنصر والرزق مرتبط بالضعفاء من أطفال أو غرباء أو مساكين أو فقراء، والعدوان عليهم سبب لتدمير المجتمع وعقوبته.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «اللهمَّ إِنِّي أُحَرِّجُ حقَّ الضَّعيفين: اليتيمِ والمرأةِ».

وقد جاء في مدح عمرو بن العاص رضي الله عنه للروم أنهم أرحم الناس لمسكين ويتيم وضعيف.

ولا زلنا نجد في العالم المؤسسات الاجتماعية الراسخة والمعنية بحقوق الضعفاء، وجدير ببلاد المسلمين أن تفعِّل هذا الجانب، وتنشئ المؤسسات الحقيقية المؤثِّرة ذات الصلاحية في حماية الأطفال والنساء والغرباء والمعاقين ونحوهم من العدوان والانتهاك والظلم، سواء أتى من الأقارب أو الأباعد، وسواء تمثَّل في تحرُّش أو سلب مال، أو حرمان من حق، أو عنف معنوي.

أصلح الله شباب المسلمين وفتياتهم، وأجمعهم على عمل الخير وخير العمل.

الحلقة الرابعة والعشرون:

العُمرة في شهر رمضان

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «العمرةُ إلى العمرة، كفارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرورُ، ليس له جزاءٌ إلا الجنة».

وهذا الفضل العظيم للعمرة عامٌّ في كل حين، وأما في رمضان، فإن فضلها يتضاعف؛ حتى قال علماء الأحناف بندبها في هذا الشهر خاصة؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار: «ما منعك أن تحجِّي معنا؟». قالت: كان لنا ناضِحٌ، فركبه أبو فلان وابنه -لزوجها وابنها- وترك ناضحًا ننضح عليه. قال: «فإذا كان رمضانُ اعتمري فيه؛ فإن عمرةً في رمضان حجةٌ». وفي رواية: «فإن عمرةً في رمضان تقضي حجة معي».

ويا له من فوز أن تكون كمَن حج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوقف معه بعرفة، وبات معه بمزدلفة، وأفاض بصحبته إلى منى، وطاف بجواره وسعى، كما هو المفهوم من ظاهر الحديث.

وإن مما يثلج الصدر أن نرى إقبال المسلمين على العمرة في هذا الشهر الفاضل من بلاد العالم كافة، حتى ليكون المشهد لرائيه مباشرة أو عبر الشاشة عِبرة ومظهرًا من مظاهر الاجتماع على الخير، والعِزَّة لهذا الدين، وسعة انتشاره ولو بُعث صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم، فرأى هذه الجموع الغفيرة تَؤُمَّ البيتَ، وتصلِّي خلف إمام واحد، تقوم وتركع وتسجد وتقعد وراءه؛ لسرَّه ذلك، فحمدًا لله على ذلك وشكرًا.

وقفات مع العمرة:

-حكم العمرة، وهل هي واجبة؟

إن القول بعدم الوجوب هو مذهب مالك وأبي حنيفة، ورواية عن أحمد، والشافعي، وكأنه المذهب القديم له.

والظاهر - والله أعلم- أن هذا هو الراجح؛ وذلك لأن القرآن الكريم نصَّ على وجوب الحج، ولم يذكر العمرة. وكذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر وجوب الحج، وأكَّده كما في حديث: «أيها الناسُ، قد فرض اللهُ عليكم الحجَّ، فحجُّوا». وحديث: «بُني الإسلامُ على خمس..». ولم يذكر العمرة.

أما الأحاديث الواردة في العمرة، فهي قسمان:

أحاديث وردت في وجوب العمرة، وأحاديث وردت في عدم وجوب العمرة، وكلها لا تخلو من مقال.

وأمثل ما ورد في هذا الباب، ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلتُ: يا رسولَ الله، على النساء جهاد؟ قال: «نعم، عليهنَّ جهادٌ لا قتالَ فيه، الحجُّ والعمرةُ». وهذا الحديث -وإن كان ظاهر سنده أنه جيد- إلا أن لفظه الآخر عن عائشة رضي الله عنها في «صحيح البخاري» ليس فيه ذكر العمرة، وهو مشهور، قالت: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لكُنَّ -وفي رواية: لَكِنَّ- أفضل الجهاد حجٌّ مبرورٌ». ولم يذكر فيه العمرة.

وهذا يعكِّر على لفظ العمرة، فلعل زيادة العمرة في الحديث من قبيل الشاذ أو المعلول. فالأحاديث الواردة في إيجاب العمرة أو في عدم إيجابها ضعيفة، فيرجع الأمر إلى البراءة الأصلية؛ إذ الأصل براءة الذمة من إيجاب العمرة، ثم إن أعمال العمرة ليس فيها زيادة على ما في الحج، ففيها الطواف والسعي والحلق أو التقصير، وهذه هي أعمال الحج، ولذلك جاء في الحديث: «دخلت العمرة في الحج». وعليه: فالعمرة سنة، وليست واجبة.

-بعض المعتمرين يهملون أهليهم الذين استرعاهم الله إياهم، فقد يسافر الأب والأم إلى مكة للعمرة، ويتركان الأولاد في البلد دون رقيب، وقد يكونون

من الصغار الذين لا يدركون، أو من المراهقين الذين يخشى أن ينزلقوا في مهاوي الخطأ بسبب استفزاز شياطين الجن والإنس لهم، وكفى بالمرء إثمًا أن يضيِّع مَن يعول!

وقد يحدث الخطأ بصورة أخرى، وهي أن بعض الناس يسافرون بأهليهم إلى مكة، ثم يعتكف الأب في الحرم، أو يقضي غالب وقته فيه، ويغفل تمامًا عن مراقبة أبنائه وبناته، أو مشاركتهم والقرب منهم، مما ينتج عنه انفصالهم وانشغالهم بما لا يتفق وحرمة المكان وشرف الزمان.

حقًّا.. إن اصطحاب الأبناء إلى البلد الحرام فرصة جميلة للتربية والإعداد والتواصل مع البنات والأولاد، وربطهم بتاريخ الإسلام، وشعوب المسلمين، وهذا يتطلَّب إحساسًا بالمسؤولية، وإدراكًا لأهمية التنشئة، وبذل الوقت والجهد والعاطفة لها.

والبعض من أئمة المساجد، ومن المصلحين، ومن سائر الموظفين الذين تتوقَّف مصالح الناس على وجودهم في مواقعهم وحضورهم لخدمة المستفيدين، يتركون ثغورهم، ويَؤمُّون مكة ليعتمروا ويقضوا العشر الأواخر فيها، والواجب أن يرابط هؤلاء على ثغورهم العظيمة، ففيها من المصالح المتعدِّية ما هو أكثر عائدة وفائدة وأجرًا لمَن احتسب وفهم مقاصد الشريعة وقواعد أحكامها.

وكثير من الأئمة يتركون مساجدهم أوقاتًا طويلة، ويذهبون للعمرة والاعتكاف، والناس بأَمَسِّ الحاجة إليهم، خاصة في هذا الشهر؛ لصلاة التراويح والقيام والعناية بشؤون المسجد في شهر رمضان، فهو موسم جوهري عظيم، ويمكن للإمام أن يذهب وقتًا قصيرًا، إذا وجد مَن يخلفه ويقوم مقامه، وابدأ بنفسك ثم مَن تعول.

-أما عن تكرار العمرة في السفر الواحد، فلم يُنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد من أصحابه ذلك، إلا ما كان من أمر عائشة رضي الله عنها؛ فإنها أحرمت بحجٍّ وعمرة في نسكها، ثم لم يطب خاطرها حتى قالت: يا رسولَ الله، يرجع الناسُ بحجة وعمرة، وأرجع بحجة! وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم رجلًا سهلًا، إذا هويت الشيء تابعها عليه، فقال لعبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما: «اذهب بها؛ فأعمرها من التَّنْعِيم». فخرجت عائشةُ رضي الله عنها واعتمرت. فتكون عائشة رضي الله عنها حينئذٍ أحرمت بعمرتين في سفر واحد، وهذا دليل على جواز إحداث أكثر من عمرة في سفر واحد، ولو لم يكن جائزًا، لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ليطيع عائشة، ولا ليجاملها في أمره.

وقد نص بعض السلف على أن بقاءه في مكة وطوافه بالبيت وصلاته فيه، أفضل من عمرته.

وعليه: فتكرار العمرة في السفر الواحد غير مستحب، ولكن لا تثريب على مَن فعله، وبخاصة مَن يأتي من مكان بعيد، ويريد أن يعتمر عن والديه المتوفين ونحو ذلك، فلا حرج وإن تقارب زمن العمرة. أما تكرار العمرة في أسفار متعددة، فلا حرج فيه، ولو كانت متقاربة.

-أما صفة العمرة: فهي الإحرام من الميقات، ثم الطواف بالبيت سبعة أشواط، ثم السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم الحلق أو التقصير، والحلق أفضل، وعند السفر يستحب له طواف الوداع إذا طال مكثه في مكة.

وجدير بالمؤمن أن يتفقَّد قلبه عقب كل عبادة؛ ليرى أثرها على نفسه، مع استحضار سعة رحمة الله وعظيم فضله، وجزيل عطائه، ورحمة الله قريب من المحسنين.

في رمضان تتجلَّى آثار العبادة على الصائم، من خُلُق حسن، وبرٍّ، وتواضع، وإحسان، ولين، ورحمة، فـ «الراحمون يرحمهم الرحمن».

الحلقة الخامسة والعشرون:

رمضان شهر الحلم

من أفضل ما يتحلَّى به الصائم في رمضان وغيره: خُلُق الحلم، الذي يسعف في كثير من المواقف، خاصة في هذا العصر الذي تتلاحق فيه الأحداث، وتتكاثر الفتن، وتتزايد الضغوط على الناس في سبيل ملاحقة الجديد، وإشباع التطلُّعات، وتحقيق المستوى الذي يطمح إليه الإنسان؛ فإنه كلما اتسعت الفرص، زاد العبء على الناس في تحصيلها والتنافس فيها، ولذا جدَّت أمراض لم تكن تُعرف من قبل؛ كارتفاع الضغط وانخفاضه، وأمراض القولون والسكر وسواها، وتضاعفت الإصابة ببعضها عمَّا كان موجودًا معروفًا.

وأصل مادة الْحِلم اللغوية تدل على ترك العجلة في كل شيء. والحلم هو الطُّمأنينة عند سَوْرِةِ الغضب، وتأخير مكافأة الظالم على ظلمه، وإذا كان الغضب هو غليان دم القلب للانتقام؛ فالْحِلم على الضد من ذلك، ففيه معنى احتمال الأذى من الأدنى، وضبط النفس، والأَنَاة والتعقُّل.

والحِلم خلق يتوسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس، والانحراف عنه، وعدم التخلُّق به ينجرف بصاحبه إلى أحد خُلُقين: إما إلى طيش ونزق

وحِدَّة وخِفَّة، وإما إلى ذُلٍّ ومهانة وحقارة. والعدل والوسط هو من سمات هذه الأمة، فبعض الحلم إذعان، كما أن استعماله في بعض الحالات لُبُّ العقل.

والناس مجبولون على الغضب والْحِلم معًا، فمَن غضب وحلم في نفس الغضب، فإن ذلك ليس بمذموم، ما لم يخرجه غضبه إلى المكروه من القول والفعل، على أن مفارقته في الأحوال كلها أحمد، وقيل: إذا لم يغضب الرجل لم يَحْلُم؛ لأن الحليم لا يُعرف إلا عند الغضب.

وما أحسن توطين النفس على لزوم الحِلم والعفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال لمثلها.

وأغنى الناس عن الحقد مَن عَظُم عن المجازاة، وأجلُّ الناس مرتبة مَن صدَّ الجهل بالحِلم، وما الفضل إلا لمَن يحسن إلى مَن أساء إليه، فأما مجازاة الإحسان إحسانًا، فهو المساواة في الأخلاق.

فالمسلم يلزم الحلِم عن الناس كافة، فإن صعُب ذلك عليه فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إلى درجة الحِلم، وأول الْحِلم: المعرفة، ثم التثبُّت، ثم العزم، ثم التصبُّر، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الصمت والإغضاء.

وما الفضل إلا للمحسن إلى المسيء، فأما مَن أحسن إلى المحسن وحلم عمَّن لم يؤذه، فليس ذلك بحلِم ولا إحسان. ولذا جاء في الحديث: «ليسَ الواصِلُ بالمُكافِئ، ولكنِ الواصِلُ الذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وصلها».

والحِلم كغيره من الأخلاق، إما يُجبل عليه الإنسان، أو يتخلَّق به، حتى يصير مَلَكة وسَجِيَّة. ففي «صحيح مسلم» أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لأَشَجِّ عبد القَيْسِ: «إن فيك خَصلتين يحبهما الله: الحِلم، والأَنَاة». وفي رواية لأبي داود: قال: يا رسولَ الله، أَنا أَتخَلَّقُ بهما، أَم الله جبلني عليهما؟ قال: «بل الله جبلك عليهما». قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبُّهُمَا الله ورسوله.

وفي الأثر: «إنما العلم بالتعلُّم، و إنما الحِلم بالتحلُّم، ومَن يتحرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَن يتَّق الشرَّ يُوقَهْ». والراجح أنه من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه، ولا يصح مرفوعًا. وقال الأحنف بن قيس رحمه الله: «إنِّي لستُ بحلِيم، ولكنني أتحالمُ».

ومن أسمائه سبحانه: «الحليم»؛ يرى معصية عباده ومخالفتهم لأمره، ثم يمهلهم، ولا يسارع في عقوبتهم، مع اقتداره واستحقاقهم لها:﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61]. ومن

شرف اسم الحلم وارتفاع قدره، أن الله جل وعلا تسمَّى به:﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225].﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263] ،﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: 12].

ثم لم يسمِّ بالحلِم في كتابه أحدًا، إلا إبراهيم خليله وابنه الذبيح عليهما السلام، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114] ، وقال:﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: 101].

ومَن تأمَّل سيرةَ النبي صلى الله عليه وسلم العطرة النيِّرة، أدرك أنه سيد أهل الحِلم والفضل والوقار؛ فهو الذي قال: «ليس الشَّديد بالصُّرَعة، إنما الشَّديدُ الذي يملك نفسه عند الغضب».

وكانوا يعتقدون أن القوي الفاضل هو القوي الذي لا يصرعه الرجال؛ بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعًا؛ بل هو مَن يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الممدُوح الذي قلَّ مَن يقدر على التخلُّق بخُلُقه، ومشاركته في فضيلته. وعندما جاءه رجل وقال له: أَوصني. قال: «لا تغضب». فردَّد مرارًا، قال «لا تغضب».

وهذه الكلمة من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، وهي أصل في التربية على حسن الخلق، وضبط النفس، وتقييد هواها.

وما أعظم خلق هذا النبي وحلمه على مَن جهل عليه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنتُ أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم قد أثَّرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال: مُرْ لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء».

وليس حلمه على قومه فقط، ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهطٌ من اليهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: السَّامُ عليكم. قالت عائشة: ففهمتُها، فقلتُ: وعليكم السَّامُ واللعنةُ. قالت: فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مهلًا يا عائشة! إن الله يحبُّ الرفق في الأمر كله». فقلتُ: يا رسولَ الله، أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «قد قلتُ: وعليكم».

ولقد تجلَّى الحِلم في أسمى صوره في الجيل الفريد الأول جيل الصحابة رضي الله عنهم، في أقوالهم وأفعالهم، وفيمَن جاء بعدهم من التابعين، وهذه صفحة مشرقة من صفحاتهم: جاء رجل يسبُّ ابنَ عباس رضي الله عنهما، فقال ابنُ عباس لمولاه عكرمة: «يا عكرمةُ، هل للرجل حاجة فنقضيها؟». فنكَّس الرجلُ رأسه، واستحى مما رأى من حِلمه.

-وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقول: «إنا معشر قريش كنا نعد الجود والحلم: السؤدد؛ ونعد العفاف وإصلاح المال: المروءة».

-وبلغ عمرَ بنَ الخطاب رضي الله عنه أن جماعةً من رعيته اشتكوا من عماله؛ فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، أيتها الرعية، إن لنا عليكم حقًّا: النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير. أيتها الرعاة، إن للرعية عليكم حقًّا، فاعلموا أنه لا شيء أحبَّ إلى الله ولا أعز من حِلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أغم من جهل إمام وخرقه». وقال رضي الله عنه: «تعلَّموا العلمَ، وتعلَّموا للعلم السَّكِينةَ والحلمَ».

-وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «ليس الخيرُ أن يكثُرَ مالُكَ وولدُكَ، ولكنِ الخيرُ أن يكثُرَ علمُكَ ويعظُمَ حِلمُكَ، وأن لا تباهي الناسَ بعبادة الله، وإذا أحسنتَ حمدت الله تعالى، وإذا أسأتَ استغفرتَ الله تعالى». وقال أيضًا: «إن أول ما عُوِّضَ الحليم من حلمه، أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل».

-وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «ينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا، حَكِيمًا حَلِيمًا سَكِينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلًا ولا صخَّابًا ولا صيَّاحًا ولا حَدِيدًا».

-وقال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما: «لا يبلغُ العبدُ مبلغَ الرأي، حتى يغلبَ حلمُه جهلَه، وصبرُه شهوتَه، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة الحِلم».

-وسُئل عَمرو بن الأَهْتم: أيُّ الرجال أشجعُ؟ قال: «مَن ردَّ جهلَه بحلمه». قال فأيُّ الرجال أسخى؟ قال: «مَن بذل دنياه لصالح دينه». وأسمعه رجلٌ كلامًا شديدًا، فقيل له: لو عاقبته. فقال: «إني أستحي أن يضيق حلمي عن ذنب أحد من رعيتي».

-وعن الحسن البصري في تفسير قوله تعالى:﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]. «حلماءُ إن جُهل عليهم لم يجهلوا».

-وعن علي بن الحسين، أن رجلًا سبَّه، فرمى إليه بخَمِيصة كانت عليه، وأَمَرَ له بألف درهم؛ فقال بعضهم: جمع له خمس خصال محمودة: الحِلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله عز وجل، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذمّ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

-وقال أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيٍّ: «دعامة العقل: الحِلم، وجماعُ الأمر: الصبرُ، وخيرُ الأمور: العفوُ».

-وقال عطاء: «ما أوى شيء إلى شيء، أزين من حِلمٍ إلى علمٍ».

-وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: «خمسٌ إذا أخطأ القاضي منهن خُطَّةً، كانت فيه وصمة: أن يكون فهيمًا، حليمًا، عفيفًا، صَلِيبًا، عالمًا، سؤولًا عن العلم».

-وقال أبو عَمرو بن العَلَاء: «كان أهلُ الجاهلية لا يسوِّدون إلا مَن كانت فيه ستُّ خصال، وتمامها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام: زيادة العفاف».

إن رمضان مدرسة الحلم، وبعض الناس يتَّصفون بروح غضبية، فهم سريعو الثورة، بطيؤو الفَيْئَة، يرفعون أصواتهم بالصُّراخ، وينغضون أيديهم، ويردِّدون عبارات غير لائقة عندما يغضبون، وقد يفعلون هذا مع أهليهم، أو زملاء العمل، أو مرؤوسيهم، وأحيانًا بذَرِيعة الغَيرة والإنكار، والصواب أن نصرة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم إنما تكون باتباع السنة، والتي أساسها الأخلاق وعدم الغلط على الآخرين، وتحبيب الخير إلى نفوسهم.

ومن الغضب أن أخوين شقيقين يتهاجران سنين طويلة بسبب خلاف على صفقة أو مشكلة عائلية، ثم لا تنفع الشفاعة والوساطة في رَأْب الصدع وتجبير الهُوَّة وإزالة الخلاف، فإذا لم يفعل الصوم والقرآن والذكر والقيام

فعله في قمع دوافعنا الأنانية وتدمير مناعاتنا الطاغية وتهدئة نفوسنا الثائرة، فأي معنى للصيام إذًا؟!

جدير بالمسلم أن يكون له حظٌّ من صيامٍ قَلَّ أو كَثر:

وَصُمْ يومَك الأَدْنى لَعَلَّك في غدٍ

تفوز بعيدِ الفطر والناسُ صُوَّم

الحلقة السادسة والعشرون:

صيام التطوع

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إن اللهَ قال: مَن عادَى لي وليًّا، فقد آذَنْتُه بالحرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضْتُ عليه، وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه».

هذا حديث جليل، فيه أن مَن سعى في نوافل العبادات تقرُّبًا إلى الله، أحبَّه الله، وقرَّبه منه، ووفَّقه في سمعه وبصره، وكان الله معه، يجيبُ دعاءه، ويعيذُه مما يخاف ويحذر، وكفى بالله حسيبًا.

والصيام من أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ ففي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «ما من عبد يصوم يومًا في سبيل الله، إلا باعد اللهُ بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفًا».

فمَن صام يومًا تطوعًا، حاز الدرجات العُلى، وأحبَّه الرحمن، والاستمرار على ذلك جالب للأجر الجزيل، والتوفيق العظيم.

•ومن ذلك: صيام شهر الله المحرم:

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة: الصلاةُ في جوف الليل، وأفضلُ الصيام بعد شهر رمضان: شهر الله المحرم». وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصيام بعد رمضان: الشهر الذي تَدعُونَه: المحرَّم».

•ومنه: صوم شعبان:

في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصوم شهرًا أكثر من شعبان، فإنه كان يصوم شعبانَ كلَّه». ومقصودها بـ«كلِّه»، أي: أكثره -والله أعلم- كما في رواية مسلم وغيره: «كان يصوم شعبان إلا قليلًا».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلتُ: يا رسولَ الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: «ذاك شهر يغفلُ الناسُ عنه بين رجب ورمضان، وهو شهرٌ تُرفع فيه الأعمالُ إلى ربِّ العالمينَ، فأحبُّ أن يرفع عملي وأنا صائم».

•ومنه: صيام ستة أيام من شوال:

فعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن صام رمضان، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر».

•ومنه: صوم عشر ذي الحِجَّة:

روى البخاري، وأبو داود، واللفظ له عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من أيامٍ العملُ الصالح فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام». يعني أيام العشر. قالوا: يا رسولَ الله، ولا الجهادُ في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهادُ في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشيء». وقال صلى الله عليه وسلم: «صيامُ يوم عرفةَ، أحتسبُ على الله أن يكفِّر السنةَ التي قبله والسنةَ التي بعده».

•ومنه: صوم يوم عاشوراء:

روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «ما رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يتحرَّى صيامَ يومٍ فضَّله على غيره، إلا هذا اليوم -أي يوم عاشوراء- وهذا الشهر، يعني رمضان».

وقال صلى الله عليه وسلم: «صيامُ يوم عاشوراءَ، أحتسبُ على الله أن يكفِّر السنةَ التي قبله».

•ومنه: صوم أيام البيض: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة:

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إذا صمتَ من الشهر ثلاثًا، فصم: ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة».

•ومنه: صيام الاثنين والخميس:

فعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن صوم الاثنين؟ فقال: «فيه ولدتُ، وفيه أُنزل عليَّ».

وعن حفصة رضي الله عنها قالت: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصوم الاثنين والخميس». ومثله حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يتحرَّى صيام الاثنين والخميس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس، فقيل له، فقال: «الأعمالُ تُعرض كلَّ اثنين

وخميس، فيغفرُ اللهُ لكل مسلم- أو: لكل مؤمن- إلا المتهاجرين، فيقول: أخِّروهُما».

•ومنه: صوم يوم وإفطار يوم (صوم داود عليه السلام):

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أحبُّ الصيام إلى الله صيامُ داودَ، وكان يصومُ يومًا ويفطرُ يومًا، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاةُ داود، وكان ينامُ نصفَ الليل، ويقومُ ثلثَه، وينامُ سدسَه».

-أما الأيام المنهي عن صيامها، فهي:

1- يوم الفطر، ويوم الأضحى:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا يصلحُ الصيامُ في يومين: يومِ الأضحى، ويومِ الفطر من رمضان».

2- إفراد يوم الجمعة:

عن محمد بن عَبَّاد بن جعفر قال: سألتُ جابرَ بنَ عبد الله رضي الله عنهما وهو يطوفُ بالبيت: نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة؟ فقال: نعم ورب هذا البيت. وزاد في رواية: يعني أن ينفرد بصوم.

3- يوم الشك:

وهو يوم الثلاثين من شعبان، إذا لم يُرَ الهِلال وشكَّ الناسُ هل هو أول رمضان، أم تتمة شعبان، فيسمَّى: يوم الشك. عن صِلة بن زُفَر قال: كنا عند عمار بن ياسر رضي الله عنه، فأتى بشاة مَصْلِيَّةٍ، فقال: كُلُوا. فتنحَّى بعضُ القوم، فقال: إني صائمٌ. فقال عمارٌ: «مَن صامَ يومَ الشَّكِّ، فقد عصى أبا القاسم صلى الله عليه وسلم».

4- صيام الدهر:

أي: مواصلة الصيام يوميًّا، فلا يفطر، ويسمَّى: صوم الدهر، وصوم الأبد. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا صامَ مَن صامَ الأبدَ».

وفي رواية: «لا صامَ مَن صامَ الدهرَ؛ صومُ ثلاثة أيام صومُ الدهر كلِّه».

*أما الحديث الوارد في النهي عن صوم يوم السبت، بلفظ: «لا تصومُوا يومَ السبت، إلا فيما افْتُرِضَ عليكم، فإن لم يجد أحدُكم إلَّا عودَ عنبٍ، أو لحاءَ شجرة، فَلْيَمْضُغْها».

فقد رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وغيرهم، وهو حديث معلول، كما صرَّح بذلك الأئمة، وقال مالك: «هذا كذب».

وقال أبو داود: «منسوخ». ووصفه النسائي بالاضطراب. ويعارضه الحديث المتفق عليه في نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم الجمعة، إلا أن يصوم يومًا قبله أو يومًا بعده. والذي بعده هو يوم السبت، والله أعلم.

الحلقة السابعة والعشرون:

صدقة الفطر في رمضان

صدقة الفطر تسمَّى: زكاة الفطر، وصدقة الفطر، وزكاة البدن، أو زكاة الرأس، أو زكاة الرقبة. فهي لا تتعلق بالمال، بل بذات الإنسان. وسُمِّيت: الفِطرة؛ لأنها تؤدَّى بعد الفطر من رمضان، أو نسبة إلى الفِطْرة، قال الله تعالى:﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

• والحكمة من مشروعية زكاة الفطر:

- أولًا: أنها طُهرة للصائم من اللغو والرفث؛ وذلك لأن الصائم لا يخلو أن يقع في صيامه نقص بوجه من الوجوه، ولو أن يلغو في الكلام أو يرفث، أو يقع في غيبة أو فضول كلام أو فضول نظر.

- ثانيًا: أنها طُعمة للمساكين؛ لأنها تخرج في ليلة العيد ويوم العيد، وهو يوم فرح وسرور واغتباط، وتوسع في المأكل والمشرب والملبس، ففي إخراج صدقة الفطر في ذلك اليوم إشعار للمساكين والفقراء بانتمائهم للمجتمع، ومشاركتهم في سرور يوم العيد وفرحه؛ لئلا يأتي عليهم العيد وهم جياع يشعرون بالانقباض والحسرة. ولهذا ذهب جمع من الفقهاء إلى

أن صدقة الفطر تُعطى للفقراء والمساكين، ولا تصرف لغيرهم من الأصناف الثمانية، وهذا اختيار ابن تيمية وابن القيم.

- ثالثًا: أن في صدقة الفطر تعويدًا لأفراد المجتمع على المشاركة والعطاء؛ ولذا كانت الصدقة متعلِّقة بالإنسان، ولو لم يكن غنيًّا، فإنه يتصدق.

• أما عن حكمها:

فقد ذكر ابن المنذر إجماع الفقهاء على وجوب صدقة الفطر، ونقل البيهقيُّ إجماع الفقهاء على وجوبها، وقال إسحاق بن راهويه: هو كالإجماع. وذلك لأدلة منها:

- أولًا: قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى* وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 14-15] ، وقد رُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنها نزلت في زكاة الفطر.

- ثانيًا: عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فرض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زكاةَ الفطر، صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير، على العبد والحرِّ، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين». والفرض صريح في الإيجاب والإلزام.

وتجب زكاة الفطر مع القدرة، ولا يشترط فيها أن يملك نصابًا؛ بل يكفي أن يكون عنده فضلٌ عن قوته وقوت مَن يَمُونه يوم العيد وليلته. والواجب صاع عند أكثر الفقهاء، ومقدار الصاع: أربعة أمداد، والمد يساوي حفنة بيدي الإنسان المتوسط المعتدل. ومقدار الصاع بالغرامات يساوي ألفين ومائة وستين جرامًا من البر تقريبًا.

• أما الأصناف التي تخرج منها:

ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدِّم: «فرض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا من تمر، أو صاعًا من شَعِير، على العبد والحرِّ، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، من المسلمين، وأمر بها أن تؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كنا نُخْرِجُ زكاةَ الفطر صاعًا من طعام، أو صاعًا من شَعِير، أو صاعًا من تمر، أو صاعًا من أَقِط، أو صاعًا من زَبِيب».

هذا هو المنصوص عليه، وجمهور العلماء من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين على أنه لا يلزم الاقتصار على هذه الأصناف، فيجوز أن تُخرج من غالب قوت البلد؛ كالأرز وغيره. والجمهور على أنه لا يجزئ إخراج القيمة، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. وأبو حنيفة يذهب إلى جواز

إخراج القيمة في صدقة الفطر. وهذا القول ثابت عن عمر بن عبد العزيز، وجاء عن الحسن البصري أنه قال: «لا بأس أن تُعطى الدراهم في صدقة الفطر». وقال أبو إسحاق السَّبِيعي: «أدركتهم وهم يُعطون في صدقة رمضان الدراهم بقيمة الطعام».

وهذا مذهب الثوري وعطاء؛ فإن عطاءً كان يعطي في صدقة الفطر الورِق، أي: الفضة، وهؤلاء من سادة التابعين. وممن قوى هذا الأمر ونصره من المتأخرين الشيخ مصطفى الزرقا.

ومن الأوجه التي يتعزَّز بها هذا القول ما يلي:

- الوجه الأول: أن كثيرًا من الفقهاء يرون أنه يخرج من قوت البلد غير المنصوص في حديث أبي سعيد وحديث ابن عمر رضي الله عنهما، فإذا تغيَّر القوت جاز أن يُخرج من القوت الموجود كالأرز أو القمح، أو أي قوت ينتشر في بلد من البلدان، وإذا جاز إخراجها من قوت البلد حتى ولو لم يكن منصوصًا ولا واردًا في السنة، فمن باب أولى أن تُخرج من الدراهم؛ لأنها قد تكون أفضل من القوت لكثير من الناس، وهذا منهم مصير إلى القيمة والتقييم؛ لأنهم قوّموا ما كان قوتًا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وأخرجوا بدله.

- الوجه الثاني: أن الأمر في هذه الأشياء ليس تعبديًّا محضًا لا يجوز الخروج عنه إلى غيره، وإنما هو أمر مصلحي واضح، أي أن المقصود من صدقة الفطر منفعة الآخذ، وإخراج القيمة - خصوصًا إذا طابت بها نفس المُعطِي ونفس الآخذ وأنه أحب إليهما معًا - يحقِّق مقصد الشرع في التوسعة على الناس، وفي تطهيرهم، وفيما فيه تحقيق مصالحهم، وليس فيه ما يعارض نصًّا ظاهرًا.

- الوجه الثالث: أن الفقهاء اختلفوا في إخراج زكاة عُروض التجارة من العُروض ذاتها أو من النقد، وفي المسألة ثلاثة أقوال:

 الأول: أنه يجوز إخراجها من العُروض أو من النقد.

 الثاني: أنه يخرجها نقدًا ولا بد.

 الثالث: أنه يجب عليه إخراجها من العُروض.

فالقول الأول فيه تخيير بين النقد وبين إخراجها من نفس العُروض، والأفضل هو الأحظُّ للفقراء، فلو علم أن الفقير سوف يشتري بهذا المال عُروضًا؛ كان الأفضل أن يعطيه عُروضاً، حتى يوفِّر عليه القيمة وتعب الشراء، وإن علم أنه متى أعطى الفقير عروضاً باعه وربما نقصت قيمته، فالأولى في هذه الحال أن يعطيه مالًا، وكذلك إذا علم أن الفقير لا يحسن

التصرف، لسفهٍ أو حمق، أو قد يكون عنده معصية فيستخدم المال في غير ما أحله الله؛ فيكون الأفضل أن يعطيه عُروضًا حتى يستخدمها فيما هي له، وقد رجَّح ابن تيمية أنه إذا كان ثمَّةَ حاجة ومصلحة، فإنه يجوز إخراج النقد عن العُروض.

فإذا كان هذا في زكاة المال، وهي ركن من أركان الإسلام، وفرض بالاتفاق، ووجوبها أظهر وأمرها آكد؛ فأن يكون سائغًا في زكاة الفطر من باب أولى. والمسألة من فروع الفقه التي يختلف فيها أهل العلم، والمقصود عدم التشديد في المسألة، وأن الخلاف فيها سائغ ومنقول، ومنذ عهود السلف كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو والٍ وخليفة يأمر رعيته بإخراجها نقدًا.

- أما عن وقت وجوبها:

فهي تجب بالفطر من رمضان؛ ولذا سمِّيت: زكاة الفطر، من باب نسبتها إلى سببها، وقد ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ومالك في رواية عنه إلى أنها تجب بغروب الشمس من ليلة العيد، بينما ذهب أبو حنيفة إلى أنها تجب بطلوع الفجر يوم العيد.

- لمَن تُعطى صدقة الفطر؟

للعلماء في هذه المسألة قولان:

- الأول: أنها تخرج للأصناف الثمانية، وهذا مذهب الجمهور؛ بل قال الشافعية: يجب تقسيمها على الأصناف الثمانية.

- الثاني: أنها خاصة بالفقراء والمساكين، وهو قول الحنابلة، واختيار ابن تيمية، وابن القيم، وهو أولى وأوجه؛ وذلك للنص؛ لأن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم قال: «... وطُعمة للمساكين». ولأنها صدقة على البدن، فليس فيها سُعاة، ولا علاقة لها بالغارمين ولا بغير ذلك، مما يدل على أن مصرفها ليس هو مصرف الزكاة المعروفة -زكاة المال- فالأولى أن يُقتصر في إخراجها على الفقراء والمساكين.

• عمَّن تخرج صدقة الفطر؟

في قول الجمهور أنه يؤدِّيها أولًا عن نفسه، ثم عمَّن يَمُونُه، فيخرجها عن زوجته وعن ولده وعن والده إذا كان فقيرًا تلزمه نفقته؛ لأن الفطرة عندهم تابعة للنفقة.

أما الجنين، فلا تجب عليه صدقة الفطر؛ لكن يُستحب إخراجها عنه، خصوصًا إذا كان قد نُفخت فيه الروح، وقد جاء عن عثمان رضي الله عنه

أنه كان يخرجها عنه، ونُقل عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنها ليست واجبة عليه.

ووقت وجوبها قبل خروج الناس إلى الصلاة؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما المتقدِّم أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم أمر بها أن تُؤدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة. وحديث ابن عباس رضي الله عنهما المتقدِّم أيضًا، وفيه: «مَن أدَّاها قبل الصلاة، فهي زكاةٌ مقبولةٌ، ومَن أداها بعد الصلاة، فهي صدقةٌ من الصدقات».

ولهذا فإن إخراجها بعد صلاة الفجر وقبل صلاة العيد إخراج لها في مكانها الصحيح باتفاقهم، وهو مجزئ.

ويجوز أن يُخرجها قبل العيد بيوم أو يومين، وهذا نص عليه ابن عمر رضي الله عنهما في رواية من حديثه. وقال بعضهم: إنه لو أخرجها قبل ذلك بثلاثة أيام إلى نصف شهر أجزأت. وقال بعضهم: من بداية الشهر. ولأن هذا قريب من العيد، وقد يكون في تحديد الوقت مشقة على الناس، والفقير إذا جاءته في مثل هذا الوقت سيحتفظ بها إلى وقت العيد، أو قد تكفيه إلى يوم العيد. أما ما بعد العيد، فلو أخرجها بعد الصلاة، فعند الحنابلة تجزيء مع الكراهة، ومذهب الجمهور أنه يجوز إخراجها في يوم العيد ولو بعد الصلاة بلا كراهة. ومن الأدلة: حديث ابن عمر رضي الله

عنهما المتقدِّم أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمر بزكاة الفطر أن تُؤَدَّى قبل خروج الناس إلى الصلاة يوم الفطر. وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتقدِّم أيضًا: «كنا نخرج في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفطر...» الحديث.

وهذا دليل على أن اليوم كله محل للإخراج، فلو أخرجها بعد الصلاة لكان مكروهًا عند الحنابلة، لكنه مجزئ عند البقية، أما لو أخَّرها بعد يوم العيد، فهي صدقة من الصدقات.

وهناك قول بأنها لا تجزئ بعد الصلاة، وإنما يخرجها قبل الصلاة، واليوم ينتهي بغروب الشمس؛ لقول ابن عمر رضي الله عنهما في حديثه المتقدِّم: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين».: «وكانوا يعطون قبل الفطر بيوم أو يومين».

الحلقة الثامنة والعشرون:

فضائل صوم 6 أيام من شوال

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن صامَ رمضانَ، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر». قال ابن رجب في «لطائف المعارف»: «اختُلف في هذا الحديث، وفي العمل به: فمنهم مَن صحَّحه، ومنهم مَن قال: هو موقوف. قاله ابن عُيينةَ وغيرُه، وإليه يميل الإمام أحمد، ومنهم مَن تكلَّم في إسناده».

وخُصَّ شوال بصيام الست؛ لأن وقوعها بعد رمضان بمثابة الراتبة للفريضة. وفي حديث ثوبان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صيامُ رمضانَ بعشرة أشهرٍ، وصيامُ الستة أيامٍ بشهرين، فذلك صيامُ السنة، يعني رمضانَ و ستةَ أيام بعده». قال ابن رجب في «لطائف المعارف»: «صحَّحه أبو حاتم الرازي، وقال الإمام أحمد: ليس في حديث الباب أصح منه. و توقَّف فيه في رواية أخرى». قال الإمام النووي: «قال العلماء: وإنما كان كصيام الدهر؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، فرمضان بعشرة أشهر، والستة بشهرين».

- **وفي صيام الست من شوال فضائل:**

1. أن صيام ستة أيام من شوال بعد رمضان يستكمل بها أجر صيام الدهر كله.
2. أن صيام شوال وشعبان كصلاة السنن الرواتب قبل الصلاة المفروضة وبعدها، فيكمل بذلك ما حصل في الفرض من خلل ونقص، فإن الفرائض تُكَمَّل بالنوافل يوم القيامة.
3. أن معاودة الصيام بعد صيام رمضان علامة على قبول صوم رمضان؛ فإن الله تعالى إذا تقبَّل عمل عبد وفَّقه لعمل صالح بعده، كما قال بعضهم: «ثوابُ الحسنة الحسنةُ بعدها.»
4. أن صيام رمضان يوجب مغفرة ما تقدَّم من الذنوب، كما سبق ذكره، والصائمون يوفون أجورهم في يوم الفطر، وهو يوم الجوائز، فيكون الصيام بعد الفطر شكرًا لهذه النعمة، فلا نعمة أعظم من مغفرة الذنوب، وقد أمر الله تعالى عباده بشكر نعمة صيام رمضان بإظهار ذكره، وغير ذلك من أنواع شكره، فقال:﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185] ؛ فمن جملة شكر العبد لربه على توفيقه لصيام رمضان، وإعانته عليه، ومغفرة ذنوبه: أن يصوم له شكرًا عَقِيب ذلك.

وكان بعض السلف إذا وُفِّق لقيام ليلة من الليالي أصبح في نهارها صائمًا، ويجعل صيامه شكرًا للتوفيق للقيام.

وكان وُهيب بن الورد يُسأل عن ثواب شيء من الأعمال كالطواف ونحوه، فيقول: «لا تسألوا عن ثوابه، ولكن سلوا ما الذي على مَن وُفِّق لهذا العمل من الشكر، للتوفيق والإعانة عليه؟».

إن كل نعمة على العبد من الله في دين أو دنيا تحتاج إلى شكر عليها، ثم التوفيق للشكر عليها نعمة أخرى تحتاج إلى شكر ثانٍ، ثم التوفيق للشكر الثاني نعمة أخرى تحتاج إلى شكر آخر، وهكذا أبدًا، فلا يقدر العباد على القيام بشكر النعم، وحقيقة الشكر الاعتراف بالعجز عن الشكر.

وصيام الست من شوال مستحب، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق، وهو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأحبار، وقول طاوس والشَّعْبي وميمون بن مِهْران وابن المبارك. وقد استدلوا بالأحاديث المتقدمة في فضلها مما رواه مسلم وغيره.

وقد كرهها قوم منهم: مالك، وأبو حنيفة؛ معلِّلين ذلك بالخوف من اعتقاد فرضيتها لدى العامة، وبأن فيها مشابهة لأهل الكتاب من حيث الزيادة على شهر الصوم المفروض.

وقد ثبتت السنة بصوم الست من شوال، ولو تركنا السنة خوف الزيادة على الفرض في الصوم؛ لتركنا جميع المندوب من صوم عاشوراء، وأيام البيض، وغير ذلك، وقد قيل: إن مالكًا كان يصومها في خاصة نفسه، وقد كان المتأخرون من الأحناف لا يرون بصيامها بأسًا. قال ابن عبد البر: «لم يبلغ مالكًا حديثُ أبي أيوب، على أنه حديث مدني، والإحاطة بعلم الخاصة لا سبيل إليه، والذي كرهه مالك قد بيَّنه وأوضحه خشية أن يضاف إلى فرض رمضان، وأن يسبق ذلك إلى العامة، وكان متحفِّظًا كثير الاحتياط للدين، وأما صوم الستة الأيام على طلب الفضل وعلى التأويل الذي جاء به ثوبان، فإن مالكًا لا يكره ذلك إن شاء الله؛ لأن الصوم جنة، وفضله معلوم، يدع طعامه وشرابه لله، وهو عمل بر وخير، وقد قال تعالى:﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج: 77] ».

•أما صفة صوم 6 من شوال:

1. فمن العلماء مَن استحب صومها من ثاني أيام العيد متتابعة، وهو مذهب الشافعي.
2. ومنهم مَن لم يفرِّق بين التتابع والتفريق من الشهر كله، وقال: هما سواء، وهو مذهب الإمام أحمد والأكثرين.

3. أنها لا تُصام عقب الفطر مباشرة؛ لأنها أيام توسعة وأكل وشرب، وإنما يصام ثلاثة قبل أيام البيض وأيام البيض أو بعدها، وإليه ذهب معمر وعبد الرزاق. والأمر في ذلك واسع إن شاء الله، ولا تثريب على مَن فعل أيًّا من ذلك.

واختلف العلماء في صيام الست لمَن عليه قضاء:

-فذهبت طائفة إلى أنه لا يتحقَّق صيام الست إلا بعد القضاء. واستدلوا بحديث أبي أيوب رضي الله عنه المتقدِّم، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَن صامَ رمضانَ، ثم أتبعه ستًّا من شوال، كان كصيام الدهر». وظاهره أنه لا يصوم الست من شوال، ولا يحصل على فضيلتها وذمته مشغولة بأيام من رمضان أفطرها، فلا يستحق هذا الوصف ويتحصَّل على الأجر إلا مَن أكمل رمضان، والذي عليه قضاء لا يكون مكمِّلًا لرمضان.

-وذهبت طائفة من أهل العلم إلى أن فضيلة صيام الست من شوال حاصلة لمَن أفطر رمضان بعذر، ومنهم: ابن حجر الهيتمي، وابن مفلح، والبهوتي. قالوا: إن الست لها خصوصية، وقضاء رمضان مُوَسَّع فيه، ولا يجب أداؤه في شوال خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184]. والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي قال: «مَن صام رمضان، ثم

أتبعه ستًّا من شوال..» الحديث، وهو يعلم أن ذمم كثير من الناس قد تكون مشغولة بالقضاء، ومع ذلك لم يشترط في الحديث بأن يقضي أولًا ما عليه.

وعلى هذا فمَن كانت ذمته مشغولة بقضاء أيام أفطرها بعذر من رمضان يتسع لها شوال مع صيام الست؛ فهذا يستعين الله، ويشمِّر لأمر ربه، ويقضي ما عليه، ثم يصوم الست؛ إبراءً لذمته وتحصيلًا للأجر. ومَن كانت ذمته مشغولة بقضاء أيام أفطرها لعذر، ولا يتسع شوال لصيامها مع الست أو يكون عليه مشقة شديدة، فهذا ممن حبسه العذر، فيصوم الست أولًا، تحصيلًا لفضلها، ثم يقضي؛ فإنه لم يفطر رمضان إلا لعذر.

والأدلة كثيرة على تحصيل المعذور للأجر الكامل طالما حبسه عذر، كما في «الصحيح» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم». قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر».

تنبيهات تتعلَّق بصيام الست من شوال:

1. اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية عيدًا، كثامن شوال الذي يسمِّيه بعض العامة: (عيد الأبرار)، ليس له أصل في الشريعة.

2. بعض الناس إذا صام الست من شوال في السنة يظن أنه يجب عليه الصيام في كل سنة، وهذا غير صحيح، فالأمر بالخيار، وفي الحديث: «الصائمُ المتطوِّعُ أميرُ نفسه، إن شاء صامَ، وإن شاء أفطر». ولو صام بعض الست، لكان له أجر ما صام، ولو لم يتمها.

إن صيام الست دليل على إلف المسلم للصوم ورغبته فيه، وأدائه للعمل تطوعًا بعدما أدَّاه فرضًا.

فاللهم تقبَّل من الصائمين، وأعنهم على طاعتك، يا أرحم الراحمين.

الحلقة التاسعة والعشرون:

عيد الفطر

العيد اسم لكل ما يُعتاد، والأعياد شعارات توجد لدى الأمم كلها؛ ذلك أنَّ إقامة الأعياد ترتبط بفطرة طُبع الناس عليها، فكل الناس يحبون أن تكون لهم مناسبات فرحٍ يظهرون فيها السرور، ويتذكرون الماضين، ويلتئم فيها الشمل.

والكثير من أعياد الأمم ترتبط بأمور دنيوية، مثل قيام دولة، أو سقوطها، أو تنصيب حاكم، أو تتويجه، أو زواجه، أو بحلول مناسبة زمانية، كفصل الربيع، أو غير ذلك. وقد تتصل بمناسبات دينية، كعيد ميلاد عيسى، وعيد رأس السنة (الكريزمس)، وعيد الشكر، وعيد العطاء...

أما المسلمون، فليس لهم إلا عيدان: عيد الفطر، وعيد الأضحى؛ ففي «سنن أبي داود» و«سنن النسائي» بسند صحيح عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وجدهم يحتفلون بعيدين، فقال صلى الله عليه وسلم: «كان لكم يومان تلعبون فيهما، وقد أبدلكم الله بهما خيرًا منهما: يوم الفطر، ويوم الأضحى». وهذان العيدان هما من شعائر الإسلام التي ينبغي إحياؤها، وإدراك مقاصدها، واستشعار معانيها.

• **ومن أحكام العيد:**

أولًا: يحرم صوم يومي العيد كما سبق؛ لأنها أيام أكل وشرب وذكر لله.

ثانيًا: يُشرع الخروج للصلاة، للرجال والنساء؛ لقول أم عطية رضي الله عنها: «أمرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجهن في الفطر والأضحى: العواتق والحُيَّض، وذوات الخدور، فأما الحُيَّض فيعتزلن الصلاة، ويشهدن الخير، ودعوة المسلمين». فإذا أُمر الحُيَّض والعواتق وذوات الخدور أن يخرجن لصلاة العيد؛ فمن الأولى أن يُؤمر الرجال شيبًا وشبابًا بالخروج؛ بل قد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الخروج لها لهذا الحديث.

ثالثًا: من أحكام العيد أنَّ الصلاة فيه قبل الخطبة، كما ثبت في «الصحيحين» من حديث ابن عمر، وأبي سعيد، وابن عباس رضي الله عنهم، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صلَّى قبل الخطبة. ولهذا لا يجب البقاء لاستماع الخطبة، بل يستحب، بخلاف الجمعة.

رابعًا: يستحب للإمام أن يكبِّر في الصلاة سبعًا في الأولى، وخمسًا في الثانية، وقد ثبت هذا عن جماعة من الصحابة والتابعين: كعمر، وعثمان، وعلي،

وأبي هريرة، وابن عباس، وأبي سعيد الخدري، وأبي أيوب الأنصاري، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم. وقد ورد في ذلك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، ومن طريق كثير بن عبد الله المزني عن أبيه، عن جده؛ والمرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح، وإنما ثبت في ذلك آثار موقوفة. ويجوز أن يكبِّر الإمام أربع تكبيرات في الأولى، وأربعًا في الثانية، فقد ثبت هذا عن جماعة من السلف، منهم ابن مسعود رضي الله عنه، وهو مذهب الأحناف، وهذه التكبيرات سنة، وهي داخلة في عموم قوله تعالى:﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج: 37].

خامسًا: يستحب أن يقرأ الإمام في صلاة العيد بـ﴿ق﴾ [ق: 1] ، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: 1]، كما في «صحيح مسلم» أن عمر رضي الله عنه سأل أبا واقدٍ الليثيَّ: ما كان يقرأ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأ فيهما بـ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: 1]، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: 1] ». وأكثر ما ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد بـ«سبح» و«الغاشية»، كما كان يقرأ بهما في الجمعة.

سادسًا: لا نافلة قبل صلاة العيد ولا بعدها، كما في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج يوم العيد،

فصلَّى ركعتين، لم يصلِّ قبلهما ولا بعدهما ، إلا إن صلَّى الناس العيد في المسجد، فيصلِّي قبل الجلوس ركعتين تحيةً للمسجد.

• ومن آداب العيد:

أولًا: الاغتسال قبل الخروج للصلاة، فقد صحَّ في «الموطأ» وغيره أنَّ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يغتسل يوم الفطر قبل أن يغدو إلى المصلَّى. وذكر النووي اتفاق العلماء على استحباب الاغتسال لصلاة العيد. والمعنى الذي يُستحب بسببه الاغتسال للجمعة وغيرها من الاجتماعات العامة قائم في العيد؛ من كونه وقت احتشاد الناس، ووقت عبادة يستحب لها الطيب والنظافة.

ثانيًا: أن لا يخرج في عيد الفطر إلى الصلاة حتى يأكل تمرات؛ لما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات. وإنما استحب الأكل قبل الخروج مبالغة في النهي عن الصوم في ذلك اليوم. وأما في عيد الأضحى، فإنَّ المستحب هو أن لا يأكل إلا بعد الصلاة من أضحيته.

ثالثًا: التكبير في يوم العيد، قال الله تعالى:﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]. وقد نُقِل عن ابن عمر رضي الله عنهما من طرق وبأسانيد صحيحة عند ابن أبي شيبة، والبيهقي، أنه كان يكبِّر إذا خرج من بيته إلى المصلَّى. وهو الراجح: أن التكبير يبدأ من حين الخروج إلى المصلَّى، لا من غروب شمس آخر أيام رمضان. ولقد كان التكبير من حين الخروج من البيت إلى المصلَّى وإلى دخول الإمام أمرًا مشهورًا عند السلف، نقله جماعة من المصنِّفين؛ كابن أبي شيبة، والفريابي في «أحكام العيدين». ومن ذلك أن نافع بن جُبير كان يكبِّر، ويتعجَّب من عدم تكبير الناس، فيقول: «ألا تكبِّرون؟!». وكان محمد بن شهاب الزهري يقول: «كان الناسُ يكبِّرون من حين يخرجون من بيوتهم حتى يأتوا المصلَّى، وحتى يخرجَ الإمامُ، فإذا خرج الإمام سكتوا، فإذا كبَّر كبَّروا». فيُشرع أن يكبِّر المسلم من حين خروجه من منزله إلى أن يخرج الإمام.

رابعًا: من آداب العيد: التهنئة التي يتبادلها الناس فيما بينهم، أيًّا كان لفظها، مثل: عيدكم مبارك. تقبَّل الله منا ومنكم.. وما أشبه ذلك من عبارات التهنئة الملائمة. والتهنئة كانت معروفة عند الصحابة، وقد رخَّص فيها أهل العلم، كالإمام أحمد وغيره، وقد ورد ما يدل عليه؛ من مشروعية التهنئة بالمناسبات، وتهنئة الصحابة بعضهم بعضًا عند حصول ما يسُرُّ،

مثل أن يتوب الله تعالى على امرئ، فيقومون بتهنئته بذلك، إلى غير ذلك. والآثار المنقولة عن الصحابة التي يحتج بها على أنه لا بأس أن يهنئ الناس بعضهم بعضًا بالعيد آثار عديدة. ولا ريب أن هذه التهنئة من مكارم الأخلاق، ومحاسن المظاهر الاجتماعية بين المسلمين، كما مر في التهنئة بدخول الشهر.

خامسًا: التجمل بأحسن الملابس؛ لما في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: أخذ عمر رضي الله عنه جُبَّةً من إِسْتَبْرَقٍ تُباع في السوق، فأخذها فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسولَ الله، ابتعْ هذه؛ تجمَّلْ بها للعيد والوفود. فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنما هذه لباس مَن لا خَلاَق له». فدل ذلك على أن التجمل للعيد كان معروفًا، وقد أقرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عمرَ على التجمل؛ لكنه أنكر عليه لُبْس الجبة؛ لأنها من حرير. وعن جابر رضي الله عنه قال: «كان للنبي صلى الله عليه وسلم جبَّةٌ يلبسها في العيدين ويوم الجمعة». وروى البيهقيُّ بسند صحيح، أن ابنَ عمر رضي الله عنهما كان يلبس في العيدين أحسن ثيابه. فينبغي للرجل أن يلبس أجمل ما عنده من الثياب عند الخروج للعيد. أما النساء فيبتعدن عن إظهار الزينة إذا خرجن؛ لأنهنَّ

منهيات عن إظهار الزينة للأجانب، وكذلك يحرم على مَن أرادت الخروج أن تتطيَّب؛ فإنها ما خرجت إلا لعبادة وطاعة.

• تنبيهات مهمة تتعلَّق بالعيد:

- بعض الناس يعتقدون مشروعية إحياء ليلة العيد بالصلاة، ويتناقلون في ذلك حديثًا لا يصح، وهو: «مَن قام ليلتي العيد محتسبًا لله؛ لم يمتْ قلبه يوم تموتُ القلوب». وهو حديث ضعيف، فلا يشرع تخصيص ليلة العيد بعبادة من بين سائر الليالي. وأما مَن كان يقوم في سائر الليالي؛ فلا حرج أن يقوم في ليلة العيد، وما جاء عن بعض السلف من إحياء ليلتي العيد، فهذا محمول على أنهم لم يحيوها لأنها ليلة عيد، بل لأن من عادتهم طول القيام، وربما اعتادوا على ذلك في عشر رمضان، أو عشر ذي الحجة، فاستمروا عليه، والله أعلم.

- العيد موسم فرح وسرور بطاعة الله، فيجدر بالمسلم والمسلمة المحافظة فيه على الآداب الجيدة والأخلاق الجميلة، والكرم والعفاف والستر والاحتشام، وحفظ العمل الصالح، والتواصي بالتسامح والعفو عمَّن أخطأ أو ظلم أو قصَّر في الحقوق من البعيد والقريب ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22].